أساطير وقصص إيطالية (للأطفال)

الجزء الأول

أساطير إيطالية

تأليف: إيمي ستيدمان

رسوم ومناظر: كاثرين كاميرون

2401

ترجمة: الحسين خضيري

مراجعة وتحرير: محمد عيسوى

تقديم: أحمد شمس الدين الحجاجى

المركز القومى للترجمة



دعنا أيها القارئ نتوقف عند عنوان الكتاب "أساطير إيطالية"؛ فكلمة أسطورة ارتبطت في الثقافة العامة بأنها خيال و إبداع شعبي، وهي بعيدة عن العقلانية، لا تمثل أحداثها الحقيقة.

بلمسة حبها المعهودة فى كتاباتها، تخطّ إيمى ستيدمان أساطيرها الإيطالية، تلك التى تروى لنا فيها عظمة وطهارة القديسين مع مشاهد حية من إيطاليا القديمة، تزفها لنا الرسامة كاثرين كاميرون بلوحاتها ذات الألوان المائية.

عليك أيها القارئ أن تصغى بقلبك مثلما تصغى بأذنيك، وإلا فلن تجد اللؤلؤة التى حرصت إيمى ستيدمان أن تخبئها طي كل أسطورة من أساطيرها.

والكتاب الذي بين أيدينا يقدم لنا باقة من الأساطير الإيطالية التى تعود ببعض العادات والشعائر إلى أصول بعيدة، تفسر هذه العادات والشعائر، وتضفي عليها ما تضفيه من القداسة، وتمنحها الوجود.



أساطير وقصص إيطالية (للأطفال)

الجزء الأول

أساطير إيطالية

المركز القومى للترجمة

تأسس فى أكتوبر ٢٠٠٦ تحت إشراف: جابر عصفور

مدير المركز: أنور مغيث

- العدد: 2401
- أساطير وقصص إيطالية (للأطفال): الجزء الأول- أساطير إيطالية
- إيمى ستيدمان
- كاثرين كاميرون
- الحسين خضيرى
- محمد عيسوى
- أحمد شمس الدين الحجاجى
- - اللغة: الإنجليزية
- الطبعة الأولى 2015

هذه ترجمة كتاب:

Legends and Stories of Italy

(For Children)

By: Amy Steedman

Pictures by: Katharine Cameron

شارع الجبلاية بالأوبرا- الجزيرة- القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤

El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.

E-mail: nctegypt@nctegypt.org Tel: 27354524 Fax: 27354554

أساطير وقصص إيطالية (للأطفال)
الجزء الأول
أساطير إيطالية

تـأليـف : إيمي ستيدمان
رسوم ومناظر: كاثرين كاميرون
ترجمة : الحسين خضيرى
مراجعة وتحرير : محمد عيسوى
تقديم : أحمد شمس الدين الحجاجى



2015

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

ستيدمان، إيمى
أساطير وقصص إيطالية (للأطفال): الجزء الأول - أساطير إيطالية
تأليف: إيمى ستيدمان؛ رسوم كاثرين كاميرون؛ ترجمة: الحسين خضيرى؛ مراجعة وتحرير: محمد عيسوى؛ تقديم: أحمد شمس الدين الحجاجى.
ط١ - القاهرة - المركز القومى للترجمة، ٢٠١٥
١١٠ص؛ ٢٤سم
١ - الأساطير - إيطاليا.
(أ) كاميرون، كاثرين (رسام)
(ب) خضيرى، الحسين (مترجم)
(جـ) عيسوى، محمد (مراجع ومحرر)
(د) الحجاجى؛ أحمد شمس الدين (مقدم)
(هـ) العنوان ٣٩٨،٢

رقم الإيداع / ٢٠١٥/٥٥٨٩
الترقيم الدولى I.S.B.N. 978-977-92-0185-6
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

تهدف إصدارات المركز القومى للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العربى وتعريفه بها، والأفكار التى تتضمنها هى اجتهادات أصحابها فى ثقافاتهم، ولا تعبر بالضرورة عن رأى المركز.

المحتويات

تنويه

هذا هو الجزء الأول من كتاب

Legends and stories of Italy (for children)by Amy Steed-man. Pictures by Katharine Cameron" أسـاطيـر وقـصـص من إيطاليا (للأطفال)"

تأليف إيمى ستيدمان، رسوم كاترين كاميرون.

وقد رأينا تقسيم الكتاب إلى جزأين، للتفاوت الواضح بين موضوعاتهما وأفكارهما وما يحويان من إيحاءات، وأسمينا هذا الجزء الأول "أساطير إيطالية (للأطفال)"، على أن يعقبه إن شاء الله الجزء الثانى بعنوان "قصص إيطالية (للأطفال)".

وقد توخينا الأمانة الأدبية فى نقل هذه الأساطير والقصص، حيث إنه من المهم لنا معرفة الصورة التى يرانا عليها الآخرون فى أساطيرهم وقصصهم، سواء راقت لنا هذه الرؤية أو شابها ما يمكن أن يشوبها.

وما ورد فى صلب هذا الكتاب إنما يعبر بالطبع عن رأى الكاتبة لا عن رأينا،،،

المحرر والمترجم

تقديم

ترجم هذا الكتاب الحسبين خضيرى، وهو قصاص وشاعر، له دواوين شعرية مطبوعة، فضلاً عن أنه مترجم متميز، قام بترجمة عدة كتب عن الإنجليزية، منها كتاب "فرسان الفن" لإيمى ستيدمان مؤلفة هذا الكتاب الذى بين أيدينا، ومجموعة قصصية مختارة من الأدب العالمى بعنوان "الزهرة الأخيرة"، ورواية "نوافذ ملونة" للكاتبة الأمريكية إيليا بيتى، وكتاب "دائمو الاخضرار" للكاتب البريطانى الساخر جيروم. ك جيروم وكتب أخرى منها المطبوع ومنها ما هو تحت الطبع. وقد وضح أسلوبه الناضج فى ترجمته لهذه الكتب؛ فبدت وكأنها مكتوبة باللغة العربية.

إنه كاتب جاد صبور، يقضى وقتًا طويلاً فى عمله، ويلح عليه حتى يظهر فى صورة ترتضيها نفسه، وهذا الكتاب "أساطير إيطالية" للكاتبة إيمى ستيدمان نشرته فى فلورنسا سنة ١٩٠٩م، أى أن عمر هذا الكتاب أكثر من مائة عام. ولقد سألت نفسى قبل أن أقرأ هذا الكتاب: ما الذى يجعل الحسين خضيرى يترجم كتابًا عمره أكثر من قرن؟

وحين قرأته تعجبت كثيراً! فموضوع الكتاب قريب جداً وأليف لدى القارئ الإيطالى، وقد يتسع الأمر ليصبح كذلك لدى القارئ الأوروبى المسيحى ووجدته قريباً جداً من القارئ المسلم، وأليفًا لديه فى مجتمع إسلامى مسيحى كالمجتمع المصرى. وأنا شخصيًا استمعت إلى قصص قريبةٍ من موضوعها منذ صغرى، فالتراث الشعبى العربى ملىء بأمثالها، وإن استبدلت بالأسماء المسيحية غيرها من الأسماء العربية الإسلامية.

ومن هنا فإنه من الخير أن نتوقف مع عنوان الكتاب "أساطير إيطالية"، فكلمة "أسطورة" ارتبطت فى الثقافة العامة بأنها خيال، وأنها إبداع شعبى، وهى بعيدة عن العقلانية، وأنها وهمٌ وخيالٌ مُغالًى فيه، لا تمثل أحداثها الحقيقة. وعندما يُطلق لفظ أسطورة على قصة أو حدث فإن هذا يعنى بعده عن الواقع وإدانته والشك فى صدقه، وقد عرفها بعض العلماء بأنها الدِّين البدائى، أو "شكل من أشكالِه الأولى عندما كانت حقيقة معيشة"، وأنها تخص إنسان ما قبل عصر الكتابة، أى أنها بالنسبة لإنسان العصر الحديث كذب صريح.

وأرى أن الأسطورة ليست كذلك، فهى دين متكامل لا يتطرق إليه الشك بالنسبة لمعتنقيها، وأنها تشمل الإنسان القديم والحديث والمعاصر، وإنسان ما قبل عصر الكتابة وما بعده.

الأسطورة مثلها مثل الدين، تتكون من ثلاثة عناصر:

الأول: التكوين.

الثانى: الوجود.

الثالث: المصير.

وفى التكوين يتحدد شكل الكون بما فيه من أرضٍ وسماء، وقوته الأولى الخالقة الإلهية، وما حولها من القوى الكونية الطيبة والشريرة، أى الملائكة والشياطين، ولكلٍّ منهم دوره العامل فى الكون، وينتهى التكوين بخلق الإنسان وعالمه، من حيوان ونبات وجماد.

وهنا يبدأ الوجود بالحياة على الأرض، ودور الإنسان وعالمه فيه، وعلاقته بالقوى الكونية، وفيها يواجه الإنسان الحياة بما فيها من مشاقٍّ ومتاعبَ، من مجاعاتٍ وأمراض وحروب، وخوف من المستقبل، وخوف من الموت ومن القوى العليا، ولهذه المشاق أسباب كثيرة، منها الجهل والأنانية وعدم طاعة الله.

وعندما تنتهى الحياة بالموت يأخذ فى التفكير فى المصير، ليبحث عن الخلاص، وبإدراك أن الموت ليس نهاية الحياة، وأن هناك حياة أخرى بعد الموت، يعرفها من أحلامه التى يرى فيها أسلافه يعودون إلى الحياة، وحيواناته التى اصطادها حيةً تواجهه فى حياةٍ أخرى لا تنتهى بالموت، وقد تبدأ به ،وقد تكون الجنة، وقد تكون النار

يبدأ التفكير في الحياة الأخرى، ويكون دور الإله مهمًا في حياته الدنيوية، وبناءً على عمله يكون حساب الخيِّر الجنة ونهاية الشرير النار.

وكتاب "أساطير إيطالية" متابعة للعقائد الشعبية، ملتزمة بفلسفة العقيدة عامةً، ولكنها تأخذ من حياة الناس تعبيراً سلوكيًا حيًا في حياتهم، يؤمن بها كثير منهم، وتسيطر على الدِّين العام بشكل رسمي. والعقائد الشعبية مسيطرة كقوة كبرى على حياة الناس، قد تصل أفكارها إلى أبعد مما ذُكر في الكتب المقدسة.

والعقائد الشعبية موضوعها سلوك الإنسان، وهي تتشابه كثيراً مع سلوك المصريين مسلمين ومسيحيين، وجَّهت الكاتبة في جمعها لقصصها في الروايات الشعبية التي آمن بها الناس في إيطاليا، لتكون عبرةً وعظة تدعوهم للالتزام بها.

وإيمان الناس بكرامات القديسين الممثلين للألوهية موجهة للحدث في صورة الطفل الوليد، ممجدة إياه في هذه الحكايات، فهو الملك ومعه الأم العذراء، وهي السيدة مريم، تواجه الملاك والإنسان، من أجل الحفاظ على روحه وخلاصه من الشيطان، في قصص قريبة من قصة "فاوست" والصراع بين الملائكة والشياطين في أخذ روحه.

لقد تناولتها الكاتبة بطريقة الراوي الشعبي، متصورةً أن هناك طفلاً تُحكى له حكايات شعبية مسلية، وأن الراوية التي تروي هذه

القصص قديسة ورغم أن أحدًا من الناس لم يتمكن من رؤية الهالة الذهبية التى تضىء رأسها.

الراوى هنا يلتقى مع الروايات الشعبية العربية التى ترى أن الوَلِىَّ قد يعرفه الناس وقد لا يعرفونه فالقداسة فى ذات القديس وفى سلوكه. وقد حملت الرواية هدفًا تعليميًا أخلاقيًا واضحًا فالأرض تخبئ ذهبها وأحجارها الكريمة فى باطنها، وعلى الغوَّاص أن ينقب فى أعماق البحار ليجد الصَّدَف الذى يرقد فيه اللؤلؤ وففى القصص والأساطير القديمة ترقد الكنوز مختبئةً فى الصَّدَفة، وهى أغلى من الذهب واللؤلؤ.

وفى قصة "قديسة لوكا العذراء" تتكلم عن زهرة ريفية ولدت فى بيت فقير وعندما كبرت عملت خادمة فى بيت عائلة نبيلة، وكانت تؤدى عملها بإخلاص، وتذهب إلى الكنيسة كل صباح وكانت تساعد الآخرين، وتقدم الفائض من الطعام إليهم، حتى لو بقيت هى جائعة. وقبل أن تبدأ عملها فى الكنيسة حدث أنها نسيت أن تعد خبز الإفطار، وهُرعت إلى البيت لتعد الخبز قبل أن يستيقظ أهله، فوجدت الأرغفة جاهزة ومعدة للنضج، وتصورت أن مخدومتها نزلت وأدَّت عنها العمل، ولكنها أدركت أن الملائكة هى التى صنعت الخبز؛ فشعرت أنها خادمة الملك. وحدثت لهذه الفتاة أشياء رأت فيها الملائكة تعمل فى حياتها فالرجل الشحاذ الذى أعطته المعطف فى الكنيسة عاد إليها بوجه مبتسمٍ، وعلى وجهه ضوء عجيب أضاء

المكان كله، فأدركت أنه ملاك من عند الله. وقد حدث تحولٌ للماء بأن أصبح نبيذًا عندما مرَّ عليها رجلٌ جائعٌ عطشانُ فى طريقه للحج، وطلب منها نبيذًا، ولم يكن لديها نبيذ، فأعطته الماء فوجده نبيذًا! فقد تحول بقدرة الله.

هذه الأساطير الإيطالية مكتوبة متابعة للعقائد الشعبية، تأخذ فى حياة الناس سلوكًا حيًّا فى وجودهم، وتأخذ هذه المعتقدات قوتها، وتسيطر على الدِّين العام بشكل رسمى، فالعقائد الشعبية تسيطر سيطرة كبرى على حياة الناس، قد تصل أفكارها إلى ما وراء ما ذُكر فى الكتب المقدسة ،فمعظم العقائد الشعبيةُ فى قصصها موضوعها سلوك الإنسان، وهى متشابهة مع كثيرٍ من موضوعات المعتقدات الشعبية المصرية.

وحتى الفروسية دخل فيها عنصر الخلاص بالنبل، وقصة "الفارس الرحيم" الشقيق النبيل الذى ذهب لينتقم لأخيه من قاتله، فوجده فى الكنيسة فى مواجهة صورة السيد المسيح فغفر له، وصلى للمسيح أن يرحمه ويغفر له وقُبلت صلاته ،وقد خرج وجهُ السيد المسيح من الصورة، وانحنى يقبل رأسَ الفارس الرحيم، فى استجابة رحيمة منه.

إن قصص تَمَثُّل الملائكة بالبشر تمتلئ به قصص المعجزات المكرِّمة لمصير الإنسان وإذا كان ملاك قد أخذ صورة الإنسان ليكافئ فتاةً على فعل الخير، ويجعل منها قديسةً فهذا موجود فى المعتقدات الشعبية الإسلامية.

وأذكر أن هناك قصة تُروى عن رجل كان مشتاقًا إلى الحج، وخرج فى قافلة إلى مكة وتوقفت القافلة للراحة، وسار فى البلدة فرأى امرأة تقف عند إوَزَّة ميتة، لفتها وأخفتها فى ثيابها، فسار وراءها حتى دخلت بيتًا، وطرق عليها الباب، وعندما فتحت سألها لماذا تأخذ الميتة؟ فقالت إنها وأولادها جائعون، وأنها مضطرة لأخذها، فأكل الميتة حلالٍ للمضطر. وعندما سألها لماذا لا تسأل الناس صدقةً؟ أخبرته أنها امرأة شريفة من نسل الأشراف؛ لا تجوز عليهم الصدقة. فمنحها ما تحتاجه من مال، وعندما عاد وجد القافلة قد رحلت، وأخذ الرجل يأسف على ضياع حَجته، وانتظر فى المكان نفسه حتى تعود القافلة من الحج. وعاد الحجيج، وازداد أسف الرجل ،وقابل رجال القافلة بالأحضان، وراحوا يهتفون باسمه، وهم يذكِّرونه بما حدث بينهم وهو معهم فى مكة، والقصص والأحداث التى حدثت بينهم، وكرمه هناك معهم وكيف أنه كان يطوف ويسعى بسرعة عجيبة، وأنه أقرض كثيرين منهم ما يحتاجون من مالٍ، وأنهم سيردون له ذلك في بلدهم. وقف الرجل حائرًا لا يعرف معنًى لذلك، وأخذته سِنَةٌ من النوم، وسمع صوتًا حنونًا يخاطبه ويخبره بأن الله كافأه على صنيعه مع المرأة الشريفة، و كلَّف ملَكًا بأن يحج محله ويساعد المحتاجين.

وليست هذه هى القصة الوحيدة، فالقصة التى تُذكر عن السيد المسيح "التِّرمس والسنُّونو" ذُكرت قصة قريبة منها فى خروج أبى زيد الهلالى سلامة من تونس وهروبه من الزناتى خليفة فى الريادة.

فكرة الحكايات المرتبطة بالعقيدة واحدة المعجزة قد تكون فى إيطاليا مع قديس مسيحى، وقد تكون فى مصر مع ولىٍّ مسلم.

وإنى أعلم أن هذا الكتاب سيولد كُتُبًا كثيرةً، وسيلهم كُتَّابًا ورواةً يحكون عن قصص متداولة بين جمهور المؤمنين من المسلمين والمسيحيين، حتى ينقلوها للقارئ الكبير والصغير. وأظن أن الحسين خضيرى قد نجح فى ترجمة هذا الكتاب، وفى أن يُذَكِّرَ الجميعَ بأن كثيراً من قصصنا الشعبى فى معتقداتنا الشعبية جدير بالتسجيل، ليكون ذلك للخير والحق والجمال الكائن فينا والذى يقدم لنا قيمةً حيةً للخير والحق والجمال.

أحمد شمس الدين الحجاجى

إهداء المؤلفة

To Winifred

إلى وينيفريد

عن هذا الكتاب

قالَ الطفلُ:

"أُريدُ اليومَ سماعَ قصةِ اللُّؤلؤَةِ المُختفيةِ".

سألَت القدِّيسةُ:

"مِن أيِّ نوعٍ مِن الحكاياتِ هذه؟"

لقدْ كانَتْ قدِّيسةً بالفعلِ، رغمَ أنَّ أحداً مِن الجميعِ لم يتمكنْ من رؤيةِ الهالةِ الذهبيةِ التى تُضيءُ حولَ رأسِها العزيزِ.

أجابَها الطفلُ:

"واحدةً من الحكاياتِ القديمةِ التى ترويِنَها عن الصَّدَفةِ التى لها لُؤلُؤَةٌ مختفيةٌ داخلَها".

قالَتْ القدِّيسةُ:

"آهٍ ... إذَنْ عليكَ أنْ تُصغيَ بقلبكَ مثلَما تُصغِي بأُذنَيْكَ، وإلاَّ فلنْ تجِدَ اللُّؤلُؤَةَ. تحرصُ أُمُّنا الأرضُ علَى أنْ تُخبئَ ذهبَها وأحجارَها الكريمةَ فى عُمقِ باطنِها، وعلَى الغوَّاصِ أنْ يُنقِّبَ فى أعماقِ البحرِ قبلَ أنْ يجمعَ الصدفَ الخشنَ الذى يرقدُ فيه اللؤلؤُ

مختبئًا، لذَا فإنَّها معَ الكنوزِ التى ترقدُ فى تلكَ القصصِ والأساطيرِ القديمةِ. أولئكَ الذينَ يعثرُونَ علَى هذه اللآلئِ يجبُ أنْ يبحثُوا جيدًا وبصبرٍ، وبهذه الطريقة فحسبُ يعثرُونَ علَيها. وكمَا تغطِّى الحشائشُ والوردُ المعهودُ سطحَ الأرضِ حيثُ ترقدُ الكنوزُ مختبئةً تخبئُ الصدَفةُ فى قلبِها اللُّؤلُؤَةَ الناعمةَ المُتلألئَةَ، لذَا فقدْ تبدُو هذه القصصُ بسيطةً وحكاياتٍ شائعةً، ولكنَّ هؤلاءِ الذينَ يتفحصُونَ طيَّاتها سيجدُونَ فى قلبِها حقيقةً حيَّةً أغلَى منَ الذهبِ واللُّؤلؤِ البرَّاقِ!"

قالَ الطفلُ:

"سأُصغِى جيدًا، ولكنَّنِى أحبُّ حتى الصدفَ الخشنَ فى حكاياتِ لُؤلُؤكِ."

إيمى ستيدمان

Florence / 1909 فلورنسا

وردةُ عيدِ الميلادِ

إنها الليلةُ التى وُلد فيها سيدُنا المباركُ Blessed Lord(*)، وأتَتْ الملائكةُ برسالتِها للسلامِ والعطفِ علَى الرعاةِ عبرَ التلِّ الوحيدِ. عظمةُ هذا المشهدِ السماوىِّ جعلَتْ الرجالَ خاشعينَ ساكنينَ وهم مجتمعُونَ حولَ نيرانِهم، وأخبارُ ميلادِ الطفلِ الملكِ الذى انتظرُوهُ طويلاً ملأَتْ قلوبَهم دهشةً وفرحةً، مما جعلَهُم صامتينَ لا ينطقُونَ لوهلةٍ. ولكنَّهم قبلَ ذلكَ رفعُوا أصواتَهم وراحُوا يغنُّونَ بأصواتٍ خفيضةٍ بما رأَوْا وبكلِّ ما كانَتْ تَعنيهِ رسالةُ الملائكةِ.

شىءٌ واحدٌ من المؤكدِ أنَّه قد حدثَ، إنهم يجبُ أنْ يبدأُوا فى الحالِ بحثَهم عن الملكِ المولودِ الجديدِ، لذا فقد راحُوا يخطِّطُونَ كيفَ سيتركُونَ قطعانَهم آمنةً، ويوقدُونَ نيرانَهم عاليةً بالأغصانِ الجافةِ، وهى التى سيُبعِدُ لهبُها كلَّ الحيواناتِ الشريرةِ. وهكذا أعدُّوا إعداداتِهم بالعزيمةِ، وامتلأُوا دهشةً فى تلكَ الليلةِ، ولكنْ لم ينبِّهْ أحدٌ الطفلةَ الصغيرةَ التى رقدَتْ فى الظلِّ الدفِىءِ لصخرةٍ قربَ النيرانِ.

(*) المقصود هنا هو السيد المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام. (المترجم)

كانَتْ تساعدُ والدَها فى رعْيِ الخرافِ طوالَ اليومِ، وانسلَّتْ إلى فراشٍ من أوراقِ الشجرِ الجافةِ كَىْ تستريحَ، حيثُ كانتْ مُجهَدةً إلى درجةٍ كبيرةٍ. لم يلحظْها أحدٌ وهىَ راقدةٌ فى ظلِّ الصخرةِ، وحتى لو أنهم فعلُوا فهم يعرفُونَ أنها أصغرُ من أنْ تعِىَ المشهدَ المجيدَ فى تلكَ الليلةِ المتلألئةِ بالنجومِ. ولكنَّ الحُوريةَ الصغيرةَ شهدتْ بواباتِ السماءِ تنفتحُ، واستمعتْ إلى رسالةِ الملائكةِ، وحدَّقتْ بعينَيْنِ مذهولتَيْنِ فى رُسلِ السلامِ هؤلاءِ، ذَوِى الأرْديةِ البيضاءِ، واستمعتْ إلى كلماتِهم.

هنالكَ الكثيرُ الذى لم تدركْهُ الطفلةُ، ولكنَّ هذا ما عرفَتْه على الأقلِّ؛ أنَّ طفلًا وُلدَ فى تلكَ الليلةِ فى القريةِ القريبةِ، وأنه ملكُ السماءِ، وقد جاءَ بالحُبِّ الإلهىِّ والسماحةِ لكلِّ المساكينِ على الأرضِ. والآنَ، وبينَما هى راقدةٌ فى ركنِها الدفىءِ تراقبُ اللهبَ المتوهِّجَ وهو يعلُو ويهبطُ، اقتربَ من أقدامِها حَمَلٌ(*) طلبًا للدِّفءِ، لكنْ لم تستأثِرْ بجوارحِها سوى فكرةٍ واحدةٍ؛ هى كيف تتمكنُ من رؤيةِ هذا الرضيعِ والملكِ الوليدِ الجديدِ؟

راحَتْ الطفلةُ ترْقُبُ الرعاةَ بقلقٍ وترقُّبٍ، وأطرقَتْ بأذنَيْها لِسماعِ ما يقولونَ. رأتْ واحدًا من الرجالِ يرفعُ حَمَلاً بين ذراعَيْه، وآخرَ

(*) الحَمَل: الخروف الصغير. (المحرر)

يأخذُ جُبنًا منزليًا من مخزنِهم الصغيرِ، وآخرَ يحملُ رغيفًا من شعيرٍ، ثم صدرتْ عن النيرانِ حركةٌ بعيدةٌ، وشاهدَت الرعاةَ وهم يستعدُّونَ للانطلاقِ إلى التلِّ، راحوا يبحثُونَ عن الملكِ الوليدِ، ولو أنها تبعَتْهم فلسوفَ تراهُ. وفى لحظةٍ تركَتْ الطفلةُ رُكنَها الدفِىءَ وهُرعتْ خلفَ الرجالِ، زحفَتْ خلفَهم بسرعةٍ وبصمتٍ وبحذرٍ من أن يلحظُوها، خشيةَ أن يلتفتَ أحدُهم ويأمرَها بالرجوعِ إلى البيتِ. ولكنَّ الرعاةَ كانُوا من الشوقِ بحيثُ لم يفكرُوا فى أىِّ شىءٍ عدَا السؤالَ العجيبَ الذى يقعُ أمامَهم، ولم يفكرُوا فى النظرِ إلى الخلفِ، ولم يسمعُوا حتى وَطْءَ الأقدامِ الصغيرةِ الحافيةِ على الأرضِ المتجمدةِ.

كانتْ ليلةً قارسةَ البرودةِ، وقد سطعَ القمرُ على جداولِ الماءِ المُحاطةِ بالجليدِ، وعلى الحقولِ البيضاءِ التى يلُفُّها الصقيعُ الأبيضُ، ما من صوتٍ هنالكَ سوى تأوُّهاتِ الريحِ العابرةِ بلطفٍ خِلالَ أغصانِ الشجرِ العاريةِ. ليس ثَمَّةَ ضوءٌ يلمحُه المرءُ فى أىٍّ من الأكواخِ التى مرُّوا بها، حيثُ يغُطُّ الجميعُ فى نومٍ عميقٍ. ولكنْ أشرقَ فوقَ رُءوسِ الجميعِ نجمٌ عجيبٌ ككرةٍ فضيةٍ من الضَّوءِ، يمضى أمامَهم وهم يعبرُونَ. وهكذا مرَّتْ الصحبةُ الصغيرةُ، وظلَّتْ الطفلةُ تتبعُهم بشجاعةٍ، على الرغمِ من وعورةِ الأرضِ وصلابتِها، والتى آلمَتْ قدميْها الحافيَتَيْنِ ألماً شديداً!

لم يكنْ من السهلِ على الطفلة أن تجارِى خُطَى الرجالِ سريعةَ الحركة، لكنها لم تكدْ تتوقفُ لتلتقطَ أنفاسَها حتى بلغُوا شارعَ قريةِ بيتِ لحم Bethlehem(*)، وتوقفَ الرعاةُ أمامَ مظلَّةٍ يشرقُ عليها النجمُ الفضىُّ، وهنا توقفُوا وتحدثُوا بأصواتٍ خفيضة، بينما تنحَّتْ الطفلةُ جانبًا فى ظلِّ المنزلِ لترقبَ ما يفعلُونَ. لقدْ رأَتْهم يُخرجُونَ الأشياءَ التى أحضرُوها من جَعباتهم، وأدركَت فى الحالِ أنها هدايا للطفلِ الملكِ Infant King، كانَ هناكَ رغيفٌ من شعيرٍ، وجُبنٌ أُعدَّ فى المنزلِ، وحفنةٌ من فاكهةٍ جافةٍ، وصوفُ حَمَلٍ أبيضُ ناعمٌ؛ ليلتفَّ حولَ قامةِ الرضيعِ فى هذه الليلةِ الباردة، إلى جانبِ عديدٍ من الهدايا الأخرى. ولكنها كانَتْ جميعُها هدايا بسيطةً ومتواضعةً، فنظرَ الرعاةُ إلى أشيائِهم فى حالةِ حزنٍ إلى حدٍّ ما.

قالَ أحدُهم بخجلٍ: "إنه عرضٌ فقيرٌ!"

وقالَ آخرُ: "إنها فى الواقعِ قرابينُ متواضعةٌ، ولكنَّه سيتفهَّم أنها أفضلُ ما لديْنا مع حبِّنا الحقيقىِّ من القلبِ".

وقالَ ثالثٌ: "بالتأكيدِ، ورَغمَ أنها متواضعةٌ فهى أفضلُ من لا شىءَ، إنه من الخطأ فى الحقيقةِ أن نأتىَ الليلةَ وأيادينا فارغةٌ لنحيِّىَ ملكَنا".

(*) القرية التى ولد فيها السيد المسيح عليه السلام. (المحرر)

وقـعَتْ كلُّ هذه الكلمـاتِ فى أُذنَـىْ الطفلةِ التى تسمـعُ بإصـغـاءٍ، وحينَ التقطَتْـها أُذناها مـاتَتْ كلُّ الفرحةِ والآمـالِ فى قلبِها؛ فما من هديةٍ لتقدِّمَـها، نظرَتْ إلى يدَيْها الصـغيرتَيْنِ اللتينِ لفحَتْهما الشمسُ باللَّونِ البُنِّىِّ، وصعدَتْ إلى حنجرتِها شهقةٌ؛ إذا ما كانَ من الإثمِ أن تدخلَ بلا هديةٍ فعليها أن تبقَى بالخارجِ. لقدْ أقبلَتْ من مكانٍ بعيدٍ، واشتـاقَتْ إلى رؤيةِ الطفلِ الملك، ولا فائدةَ من ذلك كلِّه الآنَ؛ فالرؤيةُ لم تكُنْ لها، ربَّما لو اقتربَتْ من البابِ حبواً (على يدَيْها ورجلَيْها) لأمكنَها أن تختلسَ النظرَ حينَ يُفتحُ البابُ لأجلِ الرعاةِ فى لمحِ البصرِ، بينَما ستبقَى هى بعيدةً لا يراها أحدٌ.

طرقَ الرعاةُ البابَ، وكشفُوا رءُوسَهم بوقارٍ، وصدرَ صوتٌ عذبٌ خفيضٌ طلبَ إليهِم أنْ يدخلُوا، وفُتحَ البابُ. حاولَتْ الطفلةُ أن تنظرَ وقد تقدمَتْ للأمامِ، وهناكَ رأَتْ فى الضَّوْءِ الخافتِ أُمًّا شابةً جميلةً، وقد انحنَى رأسُـهـا قليـلاً، وخلفَـهـا ثورٌ an ox وأتانٌ an ass يَطعَمانِ من مِزْودٍ منخفضٍ. جاهدَتْ الطفلةُ لترَى الرضيعَ، لكنَّ صفوفَ الرعاةِ الجاثيَةِ على رُكَبِها حالَتْ بينَها وبينَ رؤيتِه، حتى عندَما تمكنَتْ من النظرِ كانَ البابُ قد أُغلقَ، وبقِيَتْ وحيدةً بالخارجِ.

بدَا وكأنَّ قلبَها سينفطرُ، فقد كانَتْ متعبةً جداً، متقرِّحةَ الأقدامِ، ونتيجةُ متاعبِها لا شىءَ. كانَ الملكُ قريبًا جداً، ليس بينَها وبينَه

سوى حائطٍ لكَىْ تراَهُ. ألقَتْ بنفسِها على حصباءِ الأرضِ القاسيةِ، ووضعَتْ رأسَها بينَ ذراعَيْها، وجاءَتْ شهقاتُها كثيفةً متلاحقةً، وبلَّلَتْ دموعُها الغزيرةُ سطحَ الأرضِ. وسرعانَ ما فُتِحَ البابُ وخرجَ الرعاةُ ببطءٍ وبخُطًى وقورةٍ، ولم يروْها حيثُ زحفَتْ إلى الحائطِ، وعندَما شرعُوا فى العودةِ إلى بيوتِهِم لم تتحركْ لتتبعَهُم؛ فقد كانتْ متعبةً للغايةِ وآسفةً جداً، حتى إنها لم تُبدِ اهتمامًا بما هى عليهِ الآنَ.

وبينَما هى راقدةٌ هُناكَ ودموعُها تتساقطُ واحدةً واحدةً راحَتْ ترمُقُ الأرضَ عن قربٍ، ما هذه الأغصانُ الخضراءُ الشاحبةُ التى انبثقَتْ من الشقوقِ بينَ الصخورِ؟ إنها تنمُو بأوراقٍ لامعةٍ! حبسَتْ الطفلةُ أنفاسَها دهشةً؛ فقد انبثقَتْ الأغصانُ حيثُ تساقطَتْ دموعُها وأذابَتْ الأرضَ المتجمدةَ، وارتفعَتْ الأغصانُ الخضراءُ الشاحبةُ أعلَى وأعلَى. وكمَا شاهدَتْ، فقد تفتحَتْ أزهارٌ لها بَتلاتٌ petals كالفضةِ البيضاءِ، كشعاعِ القمرِ على الجليدِ المتلألِئِ!

خطرَتْ فكرةٌ سارَّةٌ إلى قلبِ الطفلةِ الحزينِ، فهنا الغايةُ التى تسعَى إلَيْها، وربَّما ترَى الملكَ. مدَّتْ يدَيْها بشوقٍ ولهفةٍ وجمعَتْ الزهورَ المتفتحةَ والبراعمَ المتوردةَ اليانعةَ، ووضعَت ورقةً أو ورقتَيْنِ من الأوراقِ اللامعةِ حولَها، ثم دنَتْ من البابِ، وجازفَتْ على خجلٍ

بطَرْقةٍ صغيرةٍ جداً. وانتظرَتْ حيثُ كانتْ تحاولُ أن تلتقطَ أنفاسَها، ولكنْ لم يُجبْها أحدٌ، ثم وضعَتْ كلتا يدَيْها على البابِ ودفعَته فانفتحَ قليلاً.

كانَتْ السيدةُ العذراءُ The Madonna جالسةً فى حظيرةِ(*) الخَيْلِ المتواضعة poor stable، بجوارِ سريرٍ صغيرٍ من القشِّ، حيثُ يرقدُ الصغيرُ يسوع .Gesu Bambino وكانتْ العذراءُ منحنيةً عليه، تغنِّى له هُنَيْهةً بعُذوبةٍ، وما زالَتْ عيناها تُشرقانِ بالفرحةِ الهادئةِ لفكرةِ الحكايةِ العجيبةِ التى أخبرَها إيَّاها الرعاةُ. وفجأةً هبَّت ريحٌ باردةٌ جافةٌ، والتفتَت العذراءُ لترَى من الذى فتحَ البابَ، ووقفَتْ هناكَ طفلةٌ صغيرةٌ متورِّدةَ الوجنتَيْنِ، ولم تكدْ دموعُها تجفُّ، وارتفعَتْ لعينَىْ العذراءِ عينانِ متلهِّفتانِ ويدانِ صغيرتانِ تحملانِ زهوراً بيضاءَ كالثلجِ.

(*) المكان الذى تربى فيه الخيول. (المترجم)



عذراء أسطورة عيد الميلاد

ما كانَتْ العذراءُ فى حاجةٍ إلى الكلماتِ لكَىْ تخبرَها معنَى هذا؛ فقد وعَى قلبُ الأمِّ فى الحالِ ما الذى أرادَته الطفلةُ، فأخذَتها بلُطفٍ وقادَتها إلى مهدِ الطفلِ، وطلبَتْ إلَيْها أن تضعَ زهورَها فى الأيدِى الصغيرةِ الواهنةِ للملكِ الوليدِ الجديدِ. جثَت الطفلةُ على ركبتَيْها وحدَّقَتْ فى الرضيعِ النائمِ، لقد نسيَتْ تعبَها وقدمَيْها المرهقتَيْنِ، نسيَتْ دموعَها وخيْبتَها، وشعرَت بإحساسٍ غامضٍ أن السعادةَ التى أفعمَتْ قلبَها ستدومُ وتدومُ للأبدِ.

والآنَ، حينَ يأتى الشتاءُ وتظلمُ أيامُ النهارِ وتطولُ الليالِى، حينَ يغطِّى الجليدُ كلَّ الزهورِ النائمةِ، وتدقُّ أجراسُ عيدِ الميلادِ، تبدو البراعمُ المتفتحةُ البيضاءُ لزهورِ الطفلةِ فوقَ الأرضِ الباردةِ المظلمةِ. إنَّنا نسمِّيها الآنَ زهورَ عيدِ الميلادِ، فى ذكرَى الصغيرةِ التى لم تجدْ لدَيْها هديةً أُخرَى لتقدمَها فى الصباحِ الأولِ للميلادِ سِوَى دموعِها الحزينةِ.

* * * * *

الفارسُ الرحيمُ

فى الأيامِ البعيدةِ الماضيةِ، حينَ كان من المعهودِ أن يُسمعَ صوتُ تصادمِ الأذرعِ فى شوارعِ فلُورنسا، وحينَما يُؤتَى بأبناءِ الأسرِ العريقةِ، ليتعلمُوا مبكرًا كيفيةَ استخدامِ السيفِ والرمحِ، اعتدَّ الناسُ واهتمُّوا بالأذرعِ القويةِ والأفعالِ أكثرَ مما اهتمُّوا باللطفِ والرحمةِ بالضعيفِ.

حقًّا كان الفرسانُ لطفاءَ ومُجاملينَ للسيداتِ الجميلاتِ، كما كانُوا يعتزُّونَ بالحقِّ والشرفِ كاعتزازِهم بسيوفِهم، لكنَّهم اعتادُوا على دفعِ الشرِّ بالشرِّ، وألاَّ يسامحُوا مسيئًا، وأن يثأرُوا لأنفسِهم بأيديهم. فى ذلكَ الوقتِ سطعَتْ قصةُ الفارسِ الرحيمِ Knight Merciful مثلَ شعاعِ نجمٍ وحيدٍ مثابرٍ يقيمُ فى سماءٍ مظلمةٍ، جمالُ ضَوْئِهِ الصَّافِى أغلى شىءٍ، بسببِ تلكَ الظلمةِ التى تحُوطُه.

كانَ من مفاخرِ العائلاتِ الفلورنسيةِ العريقةِ أن الأخوَيْنِ الصغيرينِ جيوفانى Giovanni وهوجو جلبرتو Hugo Gualberto قد شبَّا معًا، تعلمَ الأولادُ فى تلك الأيامِ أن أطفالَ النبلاءِ nobles

يُنتظرُ منهُم أن يُتقنُوا مهاراتِ القتالِ، وبخاصةٍ استخدامُ أسلحةِ الفرسانِ؛ لذا فلقدْ تمرَّسُوا وجُبِلُوا علَى أن يكونُوا فرسانًا جَسُورِينَ وجنودًا شجعانًا. وإلى جانبِ هذا كانُوا يُلقَّنُون دروسًا فى الإيمانِ بعقيدتِهم؛ لذا كانَ من الواجبِ على الفارسِ المسيحىِّ أن يحققَ الإجلالَ والتوقيرَ لكلِّ المقدساتِ.

جَثَا الأخوَانِ الصغيرَانِ على رُكَبِهما فى الكنيسةِ العريقةِ المعتمة، فى أثناءِ تصويرِ قصةِ بيت لحمَ مرَّةً أُخرَى، كانَ الرضيعُ الشمعىُّ waxen Bambino (تمثالُ المسيحِ الشمعىِّ) راقدًا على القشِّ، تحرسُه الأمُّ البتولُ والقديسُ يوسُفُ، كان يعلِّمُ الدرسَ الإلهىَّ القديمَ عن التواضعِ تجاهَ الناسِ، وكان الثورُ والأتانُ أيضًا اللذانِ بالقربِ من المزودِ يلحظانِ المنظرَ بعيونٍ حكيمةٍ، وكأنَّهما قد أُعدَّا لتذكيرِ الناسِ أن مخلوقاتِ اللهِ العجماءَ لها نصيبُ أيضًا من رحمتِهِ وحنانِهِ.

عندَما حلَّ الأسبوعُ المقدسُ، وانقطعَتْ كلُّ أجراسِ المدينةِ للرَّنينِ، لأنها الجمعةُ الحزينةُ، جثَا الولدَانِ راكعَيْنِ ثانيةً تحتَ المسيحِ المصلوبِ، وحدَّقَا ببصريْهما مذهولَيْنِ من هولِ المشهدِ الحزينِ للمعاناةِ. كانَ ذلكَ درسًا صعبًا؛ لماذا يَلزمُ أنْ يُعانِى الملكُ هكذا علَى أيدِى أتباعِهِ؟ كانَ من السهلِ أنْ ندركَ سببَ البهجةِ

والإشراقِ بعيدِ الفصحِ، حينَ دقَّت الأجراسُ فى الخارجِ مرَّةً أُخرَى وبدَا العالَمُ مُفعمًا بالسعادةِ، لأنَّ الملكَ انتصرَ على أعدائه.

وهكذا كبرَ الولدانِ معًا، وتعلَّما دروسَهما معًا، وأحبَّ كلٌّ منهما الآخرَ حبًّا عميقًا وخاصًّا، لقدْ كانَا الطفلَيْنِ الوحيدَيْنِ فى القصرِ الرماديِّ القديمِ، وقد اقتسمَا كلَّ فرحةٍ وكلَّ حزنٍ فى حياتِهما، وعندَما كانَتْ الدنيَا بهجةً وإشراقًا، وقد بسطَتْ الحياةُ كلَّ مسراتِها تحتَ أقدامِ الفارسَيْنِ الصغيرَيْنِ، جاءَتْ الصدمةُ المفاجِئةُ التى محَت الضوءَ من حياةِ جيوفانى للأبدِ. جلسَ أخوهُ هوجو ذاتَ صباحٍ مُفعمًا بالحيويةِ والمرحِ، فوخزَ قلبَه خنجرُ العدوِّ قبلَ حلولِ المساءِ، ربَّما شبَّ قتالٌ عنيفٌ هناكَ، وأودَتْ الخيانةُ بحياةِ الفتَى، ولم يُعرفْ أكثرُ من ذلكَ.

كانَ تصديقُ ذلكَ محالاً، لكنَّه حدثَ حقيقةً، ماتَ هوجو، وصعدَ نواحٌ عميقٌ حزينٌ إلى السماءِ، معَ صرخةٍ عنيفةٍ مدوِّيَةٍ تطلبُ الانتقامَ من القاتلِ، بدا الأبُ المُسنُّ متماسكًا صلبًا فى حزنِه، وبكَتْ الأمُّ كسيرةُ القلبِ حتى لم تعدْ بها قدرةٌ على البكاءِ أكثرَ، ثم التفَت كلاهما إلى جيوفانى أملِهما الوحيدِ، ورجَوَا منه الانتقامَ والثأرَ لمقتلِ أخيه المؤلمِ.

لم يكُنْ جيوفانى يحتاجُ دافعًا ولو قليلاً، فلقد احترقَ قلبُهُ مثلَ جمرةٍ فى داخلِه من شدةِ الغضبِ، ولم تطفِئْ دموعُه الرقيقةُ وميضَ الانتقامِ الذى برقَ فى عينَيْه. قبضَ جيوفانى علَى سيفِه بقبضتِه اليُمنَى القويةِ، وأرسلَ بصرَه عاليًا إلى السماءِ، ونذرَ ألا يرتاحَ ليلاً ولا نهارًا حتى يثأرَ من قاتلِ أخيه، ولسوفَ يقبضُ علَيْه مهما كانَ موضعُ اختبائِه، لن يُنجيَه شيءٌ من الانتقامِ الذى جعلَه جيوفانى واجبَه، وهكذا انطلقَ فى بحثِه، وبدَا كمَا لو أنَّه فى ساعاتٍ قلائلَ تحوَّلَ الفتَى أبيضُ القلبِ إلى رجلٍ حانقٍ عابسٍ.

كانَ الوقتُ ربيعًا، لكنَّ جميعَ الفصولِ تشابهَت لدَى جيوفانى؛ فالسماءُ كانَت زرقاءَ، والأرضُ كانَت مزهرةً، ولكنَّهُ ربَّما كانَ شتاءً ميتًا بالنسبةِ إليه. لقد غابَتْ الشمسُ من سمائِه، واسودَّتْ الدنيَا أمامَ عينَيْه، ولم يعدْ يرَى إلا الرغبةَ فى الانتقامِ. ظلَّ جيوفانى فى بحثِه الدءُوبِ يومًا بعدَ يومٍ وساعةً إثرَ ساعةٍ، ولكنَّهُ لم يجدْ دليلاً علَى عدوِّه، حتى دفعَه السأمُ إلى الابتعادِ عن المدينةِ، وانطلقَ إلى المنزلِ الريفيِّ خارجَ فلُورنسا، حيثُ كانَ أبوه وأمُّه فى انتظارِ أخبارِه.

فى مساءِ الجمعةِ الحزينةِ، وقد بدَا أنَّ السكينةَ الوقورَ قد حلَّتْ على الأرضِ، لم يلحظْ جيوفانى صمتَ الأجراسِ، وليسَ ثَمَّةَ ما يدلُّه

على مرورِ الوقتِ، راحَ يصعدُ ببطءٍ التلَّ شديدَ الانحدارِ، والذى يمتدُّ من بواباتِ المدينةِ إلى كنيسةِ سان مِنْيَاتُو San Miniato التى يلزمُه المرورُ علَيْها فى طريقِه إلى بيتِه.

فى منتصفِ الطريقِ أعلَى التلِّ ممرٌّ صغيرٌ يتجهُ بحدَّةٍ إلى اليمينِ، وهناك عندَ الركنِ يلتقِى جيوفانى فجأةً الرجلَ الذى يبحثُ عنه وجهًا لوجهٍ، العدوَّ الذى قتلَ أخَاه بقسوةٍ. استلَّ جيوفانى سيفَه بسرعةٍ كلمحِ البرقِ، وملأَتْ قلبَه دفقةٌ من فرحةٍ وحشيةٍ؛ ها هو ذا عدوُّه أعزلَ وحيدًا ذليلاً بينَ يدَيْه، لا مهربَ له، وقدْ انتصرَ الانتقامُ. أيقنَ الرجلُ التعسُ أنه لا مفرَّ له، ولم يستطِعْ القتالَ دفاعًا عن حياتِه بلا سلاحٍ، لقد وقعَ بالفعلِ فى يدِ المنتقمِ، ولم يبقَ أمامَه إلاَّ شىءٌ واحدٌ يستطيعُ أنْ يفعلَه، أنْ يجثُوَ على ركبتَيْه ويلتمسَ الرحمةَ؛ فصاحَ: "من أجلِ المسيحِ أستعطفُكَ أن تتركَنى لأعيشَ! إنه من صُلِبَ على الصليبِ فى مثلِ هذا اليومِ ليُنقذَ الإنسانيَةَ، ألاَ يُرِينَا رحمةً بعضِنا ببعضٍ؟ بمحبةِ المسيحِ منقذِنا ارحَمْنِى!"

وفى أثناءِ حديثِه جعلَ ذراعَيْه على شكلِ صليبٍ، ونظرَ لأعلَى وتطلَّعَ فى عينَىْ فارسِ الانتقامِ متوسِّلاً. سادَتْ لحظةُ صمتٍ، وتوقفَ السيفُ المسلولُ، دار فى قلبِ جيوفانى صراعٌ رهيبٌ، أتُرَى بمقدورِه التخلِّى عن ثأرِه الذى تشوَّقَ إليه طويلاً؟ الرجلُ قاتلٌ

ويستحقُّ العقابَ، ولكنْ ألمْ يُصلِّ المسيحُ على الصليبِ من أجلِ العفوِ عن الذين قتلُوه؟! أضحَى الدرسُ القديمُ العصيُّ على الفهمِ واضحًا. أليس هو الفارسُ الكاملُ والمثالُ الحقُّ للشجاعةِ والفروسيةِ؟!

كان الصراعُ شديدًا، وقد هبَّ من قلبِه عابدٌ ليؤازرَه، وشيئًا فشيئًا راحَ يخفضُ سيفَه، وحينَما حدَّق بصرَه في التعِسِ المرتعدِ عندَ قدمَيْه تدفقَتْ شفقةٌ كبيرةٌ إلى قلبِه، وانحنَى نحوَ الرجلِ الراكعِ علَى ركبتَيْه ليساعدَه على النهوضِ، واحتضنَه متسامحًا. افترقَا هناكَ، وما زالَ جيوفاني يرتعدُ إثرَ الصراعِ الذى اعتركَ فى قلبِه، ومضَى علَى مهلٍ فى طريقِه إلى أعلَى التلِّ، حتى وصلَ إلى بابِ الكنيسةِ، ودخلَها ملتمسًا طريقَهُ فى الظلمةِ إلى الهيكلِ العالِى، حيثُ عُلِّقَ صليبٌ عظيمٌ. جثَا هناك جيوفانى على ركبتَيْه، وأخفَى وجهَه بينَ يديْه، وعرفَتْ دموعُه الساخنةُ الغزيرةُ طريقَها خلالَ أصابعِه، وتساقطَتْ علَى الأرضيةِ الرخاميةِ.

لقد أيقنَ الآنَ أنَّ الانتقامَ فعلٌ أسودُ قاسٍ، لا يجوزُ أنْ يقترفَه الفارسُ المسيحيُّ بيديْه! لقدْ تفكَّر كيفَ أهانَ وأحزنَ ذاكَ السيدَ المحترمَ، الذى تعلقَ بالصليبِ دونَ شكوى طلبًا للنجاةِ بحياتِه. وفى سكونٍ حرَّكَ الراكعُ شفتَيْه همسًا: "أيها المسيحُ الذى علَّمَنِى أنْ

أرحمَ عدُوِّى، ارحَمْنى واغفِرْ لِى كمَا رحمْتُه أنا". من المؤكَّدِ أنَّ صلاتَه قد قُبلَتْ؛ فإنَّه لمَّا خرجَتْ كلماتُه فى سكونٍ انحنَى وجهُ المسيحِ لأسفلَ، وفى استجابةٍ رحيمةٍ قبَّلَ رأسَ الفارسِ الرحيمِ.

* * * * *

قدِّيسةُ لُوكَّا العذراءُ

تقعُ أوديةٌ ووِهادٌ جميلةٌ بينَ جبالِ كرَّارَا Carrara المرمريةِ العاليةِ، حيثُ العديدُ من القُرَى الصغيرةِ هنالكَ تتعلقُ بِجانبِ التلالِ، أو ترقدُ فى أحضانِ الوادِى أسفلَ منها. وفى هذه الأوديةِ بساتينُ العنبِ المثمرةُ، وغاباتُ الزيتونِ، وتنمُو بالأعلَى أشجار القَسْطَل chestnuts(*) وأشجارُ الأناناسِ، تتخلَّلُها على استحياءٍ حقولُ القمحِ، ولكنْ هنا وهناكَ بالأعلَى وبالأسفلِ تنبُتُ الزهورُ دائمًا لتجعلَ العالمَ جميلاً بألوانِها الأحمرِ والأبيضِ والذهبىِّ.

فى واحدةٍ من هذه القُرَى الصغيرةِ بينَ التلالِ، وعلى بعدِ تسعةِ أميالٍ شمالَ مدينةِ لوكَّا Lucca واحدةٌ من أجملِ الزهورِ فى حديقةِ اللهِ(**)، أزهرَتْ منذُ سنينَ طويلةٍ. لم تكنْ هذه الزهرةُ إلاَّ طفلةً ريفيةً فقيرةً، وُلدَتْ فى بيتٍ متواضعٍ، ولم تصبحُ مطلقًا ثريةً ولا

(*) شجر من الفصيلة البلوطية، له ثمر يؤكل مشويًا، ويسمى فى مصر "أبو فروة". (المحرر)

(**) "حديقة الله" اسم كتاب للمؤلفة إيمى ستيدمان، تتناول فيه حياة القديسين. (المترجم)

عظيمةً ولا قويةً، ولكن قصةَ حياتِها التى أُهملَتْ الآنَ وربَّما نُسيَت فى الأغلبِ لا يزالُ شذَاها يفوحُ من تلكَ الزهورِ المختفيةِ، والتى لنْ تذبُلَ أبدًا .

كانَ المنزلُ الذى وُلدَتْ فيهِ زِيتَا Zita منزلاً فقيرًا للغايةِ، أو علَى الأقلِّ هو الفقرُ كمَا يعرفُهُ العالَمُ. عملَ أبُوها وأمُّها بجدٍّ، ورغمَ ذلكَ لم يكُنْ لديْهِم ما يكفِيهِم من الطعامِ دائمًا، وفى ليالِى الشتاءِ كانَت زِيتَا غالبًا تشعرُ بالبردِ والجوعِ. لكنَّ هنالكَ أشياءَ أُخرى يُعتدُّ بها أكثرَ من الذهبِ، فقدْ كانَ البيتُ الصغيرُ غنيًّا بالصلاحِ والطيبةِ والأمانة. لم يكنْ فى الريفِ كلِّه رجلٌ أفضلُ من الأبِ الذى كانَ يُدعَى جيُوفَانِّى لُومْبَارْدُو Giovanni Lombardo، ولا من الأمِّ التى كانت تُدعَى بيُونِيسِّيمَا Buonissima، (وتَعنِى بالإيطاليةِ صالحةً جدًّا)، وقد علَّمَت ابنتَها الصغيرةَ فى وقتٍ مبكرٍ كلَّ ما هو طيبٌ وحقٌّ.

تعلَّمَتْ الطفلةُ بسهولةٍ، حيثُ كانَت مُطيعةً ومُتجاويةً وذكيةَ التفكيرِ معَ الآخرينَ، كانَتْ سريعةً ومرحةً، وكانَتْ معاونةً جدًّا فى أعمالِ المنزلِ، عندَما فكرَتْ فى كسْبِ عيشِها، حينَ جثَتْ على ركبتَيْها فى الكنيسةِ، حيثُ شبَّتْ هادئةً وحالمةً. حدثَ ذلك فحسبُ، أحبَّتْ التأمُّلَ فى الطفلِ يَسُوعَ Gesu Bambino الذى وُلدَ فى

مكانٍ صغيرٍ فقيرٍ كمثلِهم، وبمرورِ السنواتِ خطا على الأرضِ. تصورتُهُ ذاهبًا من قريةٍ صغيرةٍ إلى أُخرَى، مُعينًا لكلِّ الفقراءِ الذين عرفَتهم، ثم منطلقًا إلى المدينةِ الكبيرةِ، حيثُ عاشَ الأغنياءُ والأقوياءُ، الذين ما زالُوا فى حاجةٍ إلى عونِهِ، ويبدُو أنَّ هذه الحياةَ الفاتنةَ قد استولتْ على قلبها.

سرعانَ ما شبَّتْ عذراواتُ الجبلِ الصغيراتُ تاركاتٍ طفولتَهنَّ وراءَهن، وسرعانَ ما تعلَّمْنَ كيفَ يُصبحْنَ نساءً نافعاتٍ. لم تتعدَّ زِيتَا الثانيةَ عشرةَ حينما بدأَتْ تفكرُ فى كسبِ عيشِها بنفسِها، لقدْ كدَّ أبُوها فى عملِه وأمُّها كذلكَ، ولم تتحمَّلْ أنْ تبقَى بلا عملٍ تؤدِّيه، وابتهلَتْ إلى اللهِ الكريمِ أنْ يرزقَها عملاً ما تؤدِّيه.

قالَتْ والدتُها فى ذلكَ اليومِ: "ابنتى الصغيرةَ، وجدْنا أنا وأبُوكِ مكانًا لكِ مع عائلةٍ نبيلةٍ فى لُوكَّا، وأنا أعلمُ أنكِ ستبذلينَ ما فى وسعِكِ لتكونِى خادمةً جيدةً، لأنكِ بخدمةِ سيِّدِكِ تكونينَ فى خدمةِ اللهِ!" قالَتْ زِيتَا بابتهاجٍ: "إنَّنى على استعدادٍ لأنْ أبدأَ فى الحالِ، ولسوفَ أبذلُ قُصَارَى جُهدِى".

لم تكنْ هناك تجهيزاتٌ كثيرةٌ لتتخذَها، وسرعانَ ما انطلقَتْ الخادمةُ الصغيرةُ الجميلةُ، لتقطعَ الأميالَ التسعةَ التى تقعُ بينَ

قـريتـهم وبينَ مـدينةِ لُوكًـا، مشـيًـا على الأقـدامِ، حـيثُ كـان عـملُهـا ينتظرُها.

وصلُوا إلى مشارفِ كَازَا فَانْتِينيلِّي Casa Fantenelli، واعتبرَتْ زِيتَا نفسَها أكثرَ حظًا لتَلحَقَ بخدمةِ عائلةٍ نبيلةٍ، لكنْ من المؤكَّدِ أنَّ الأمـرَ كـانَ شـاقًّـا جـدًا على فـتـاةٍ صـغـيرةٍ جـميلةٍ، علَى الرغمِ من الاثنَتَيْ عشرةَ سنةً التي جعلَتْها تشعرُ بنضجِها وأنوثتِها، فتحبسَ دموعَها وهي تقولُ وداعًا لأبيها. لقدْ أحسَّتْ بتلكَ الوحدةِ وقد تُركَتْ واقفةً هناكَ علَى بوابةِ كَازَا، في مدينةٍ غريبةٍ، وبينَ أناسٍ غرباء.

ولكنَّ زِيتَا نادرًا ما كانَتْ تستغرِقُ وقتًا في التفكيرِ في نفسِها؛ لقدْ كانَتْ تبحثُ عن العملِ الذي انتظرَتْ أن تؤدِّيَه، ولمْ يخطُرْ ببالِها أنْ تتخلَّى عن هذه الرغبةِ. لذلكَ، ورغمًا عن ذلكَ، ربَّما غشيَتْ عينَيْها الداكنتَيْنِ الدمـوعُ وهي ترقبُ أبَاها ينعطفُ ويهـبطُ الشـارعَ، فلم ترقبْهُ طويلاً، لكنَّها اجتازَتْ البوابةَ الكبيرةَ، مُشتاقةً لأنْ تبدأَ العملَ فـورًا. كـانَتْ زِيتَـا مـجـرَّدَ طفلةٍ حـينَ التـحـقَتْ بتلكَ الخـدمـةِ، ولم تغادرْها، وقد خدمَتْ العائلةَ بإخلاصٍ وجدٍّ حتى وفاتِها.

لم تكنْ هناكَ فتاةٌ صغيرةٌ تعملُ عملاً شاقًّا أكثرَ منها، لا أحدَ يعـرفُ كيفَ تسـتـيـقظُ مـبكرةً، وكم تُنجزُ من العـملِ قـبلَ شـروقِ الشمسِ، كانَ الطلبُ الوحيدُ الذي طلبَتْه هو أن يُسمحَ لها بالذهابِ

للخدمة مبكرًا فى الكنيسة القريبة، ولأنَّها تعودُ دائمًا بسرعةٍ إلى المنزلِ، كمَا كانَتْ تعملُ عملاً مزدوجًا أيضًا، فقد سُمِحَ لها أنْ تذهبَ كلَّ صباحٍ كمَا رغبَتْ.

شُغِفتْ العائلةُ كلُّها بالصغيرةِ الجميلةِ المنشغلةِ التى خدمَتْهم بإخلاصٍ، وبمضىِّ الأعوامِ أصبحَتْ مقاليدُ كلِّ شىءٍ بيدَيْها، لأنَّها كانَتْ موضعَ ثقتِهم جميعًا، لم يكُنْ يبقَى أىُّ فضلِ طعامٍ فى المطبخِ، لأنَّ زيتَا كانَت تفكرُ دائمًا فى الفقراءِ؛ فلم تتخلَّصْ مِن شىءٍ وتقذفْ بهِ بعيدًا معَ القاذوراتِ إذا كانَ فى الإمكانِ، بقليلٍ من العنايةِ، أنْ يستخدمَهُ الفقراءُ. حتى أوقاتِ فراغِها قضَتها زِيتَا فى مساعدةِ الآخَرِينَ، كثيرٌ من المرضَى والمنعزِلِينَ أسعدَتهم هذه الصبيةُ الصغيرةُ، وهى التى غالبًا ما فضلَّتْ أنْ تَذهبَ عنهُم جائعةً علَى أنْ تشاركَهُم الطعامَ.

ونادرًا ما قصرَّتْ زِيتَا فى واجبٍ أو نسيَتْهُ، ولكنْ فى صباحِ يومٍ ما حدثَ شىءٌ غريبٌ، فى ذلكَ اليومِ أُعدَّ الخبزُ وجُهِّزَت الأرغفةُ قبلَ أنْ تبدأَ زِيتَا عملَها فى الكنيسةِ. لم تستطِعْ بعدَها أن تتذكرَ كيفَ نسيَتْ، كانَ ذلكَ فقطْ حينَ نهضَتْ علَى ركبتَيْها بعدَ الخدمة، فلقدْ تذكرَتْ فجأةً أنَّها تركَتْ عملَها دونَ أنْ تؤدِّيَه، وهُرِعَتْ إلى البيتِ مغمومةً لاهثةً حينَ دخلَتْ المطبخَ مُسرِعةً. ولكنَّها حينَ نظرَتْ إلى

المنضدةِ وقفَتْ ساكنةً تمامًا واتسعَتْ عَيْنَاها دهشةً! لقدْ اصطفَّ هنالكَ صفٌّ من الأرغفةِ جاهزًا ومعدًا للنُّضجِ، وقد غُطِّيَ بقماشٍ أبيضَ يحفظُه من الأتربةِ. أتُراها مخدومتُها التى نزلَتْ وأدَّتْ عنها العملَ؟ لكنْ لم يستيقظْ أحدٌ؛ فالجميعُ نائمونَ!

حينئذٍ ملأَ قلبَ العذراءِ الصغيرةِ شعورٌ بالرضَا، وشيءٌ ما أوْحَى إليها أنَّ ملائكةَ اللهِ أسدَوْا إليها هذا الجميلَ، فأياديهم المُعينةُ ما أنفقَتْ الخدمةَ المتواضعةَ، وربَّما يعينُونَ خادمةً عذراءَ صغيرةً مجتهدةً، بينَما هى تُصلِّى فى كنيستِها. أحبَّتْ زِيتَا عملَها دائمًا، ولكنَّ فكرةَ أنَّ الملائكةَ تساعدُها جعلَتْ واجباتِ حياتِها المعتادةَ جميلةً فى عينَيْها، وشعرَتْ أكثرَ مِن أىِّ وقتٍ مضَى أنَّها خادمةُ الملكِ.

كانَ ذلكَ الشتاءُ قاسيًا على الفقراءِ، وكان البردُ قارسًا واستمرَّ طويلاً، وتخلَّتْ زِيتَا عن كلِّ ملابسِها الشتويَّةِ التى كانَتْ بحوزتِها، وما زالَتْ حزينةً للفقراءِ الذين كانُوا يرتعدُونَ تحتَ وطأةِ الريحِ الشديدةِ ولمْ تستطِعْ معاونتَهم. وعندَما أشرقَ صباحُ عيدِ الميلادِ "الكريسماس" Cristmas، وكانَ أقسَى الأيامِ برودةً، هبَّتْ الريحُ قاسيةً مع الجليدِ، وقد جرفَتْ هذه الريحُ الباردةُ كلَّ شيءٍ، حتى الأفكارَ الدافئةَ، بعيدًا. التحفَ الذين هرولُوا إلى الكنيسةِ بالمعاطفِ

حـتى آذانِهم، وطـأطأوا رءوسَــهم هـربًا من ســيلطِ رياحِ الجــبلِ القاسية.

كانَتْ زيتا كعـادتِها جاهزةً لأنْ تبدأَ، ولم تُعرْ البرودةَ بالاً، رغمَ ردائِها الخفيفِ، ورغمَ أنَّها لمْ تملكْ معطفًا يغطِّيها، ولكنَّها لمْ تخْطُ خُطُواتٍ مِن البابِ حتى سمعَت سيدَها يناديها قائلاً: "زِيتَا، إنَّه من الجنونِ أنْ تخـرجِي فى مــثلِ هذا الطقسِ؛ ليسَ لديكِ مــعطفٌ، وملابسُكِ خفيفةٌ، ارضَخِي وامكُثِي اليومَ بالبيتِ!"

صـاحَتْ زِيتَا والدموعُ تطفرُ من عينَيْها: "يا سَيِّدِي، مُرْنى بأيِّ شيءٍ آخـرَ غيرِ هذا؛ إنَّه عيـدُ مـيلادِ المسيحِ الطفلِ Christ-child وأنا ذاهبةٌ لأُحيِيَة فى كنيستِه!" قالَ سَيِّدُها: "لا، لكنكِ ستتجمدينَ!" قالَتْ زِيتَا راجيةً: "الكنيسةُ قريبةٌ، وسيكونُ شعورِى بالبردِ قليلاً محتملاً". ابتسمَ سَيِّدُها، وأذنَ لها أنْ تمضيَ، وبينَما كانَ يتحدثُ إليها خلعَ معطفَه الوثيرَ ولفَّه حولَ كتفَيْها، وقالَ لها: "أُعيرُكِ هذا المعطفَ، فربَّما يحفظُكِ دافئةً وأنتِ فى الكنيسةِ، لكنْ تذكرِى أنَّهُ مجردُ سلفٍ أُعيرُه، وعليكِ أن تعيديهِ إليَّ سليمًا". لم تشعرْ زِيتَا بالراحةِ والدفءِ قطُّ مثلَما تشعرُ الآنَ؛ فالمعطفُ الناعمُ السميكُ حفظَها من البردِ المؤلمِ، وبثَّ وهجَ الدفءِ فى أوصالِها إلى أخمصِ

قدمَيْها، قالَت زِيتَا لنفسِها إنها قد عرفَتْ الآنَ ما تشعرُ به صغارُ الطيورِ حينَ تنسدِلُ تحتَ أجنحةِ أمهاتِها.

ولكنْ معَ الدفءِ والراحةِ جاءَتْ فكرةٌ أُخرَى، إنَّهُ اليومُ الذى وُلِدَ فيه المسيحُ Crist فى مأوًى فقيرٍ بسيطٍ، حيثُ كانَ كلُّ شىءٍ شديدُ البرودةِ والمشقةِ علَيْهِ، ولم تُغطِّه ملابسُ فاخرةٌ ناعمةٌ، ويبدُو بالكادِ أنَّ الخادمةَ قد نالَتْ أفضلَ من سيدِها، وابتهلَتْ قائلةً: "سامِحْنى يا ربِّى، يا سيِّدِى، إنَّكَ تعلمُ أنِّى لمْ أطلبْ أنْ أرتدىَ هذا المعطفَ، وأنَّنى يجبُ أنْ أتحمَّلَ سعيدةً ما هو أكثرُ من البردِ لأجلِ جنابِكَ العزيزِ".

وصلَتْ إلى بابِ الكنيسةِ حينَ انتهَتْ مِن ابتهالِها، وتوقفَتْ هناكَ للحظةٍ ترقبُ بشفقةٍ فقيرًا متسوِّلاً، وقد وقفَ منحنيًا فى مواجهةِ الحائطِ، كان فقيرًا مُدقِعًا ونحِيلاً، يقفُ مرتعدًا كما لو أنَّهُ نصفُ ميِّتٍ من شدةِ البرودةِ! امتلأَ قلبُ زِيتَا بالحنُوِّ علَيْهِ حينَ نظرَتْ إلَيْهِ، واقتربَتْ منهُ ومسَّتْ ذراعَه بلُطفٍ، وقالَت: "أخِى، هل تشعرُ بشدةِ البردِ؟ انظرْ هنا، سأُعيرُكَ هذا المعطفَ اللَّيِّنَ الناعمَ، لا يمكنُنى منحَكَ إيَّاه لأنَّه ليسَ لِى، ولكنَّهُ سيُشعِرُكَ بالدفءِ ونحنُ نركعُ معًا فى الكنيسةِ، وبعدَ ذلكَ تأتِى معِى وتدفِئُ نفسَكَ عندَ موقدِ مطبخِى".

وهكذا أدَّتْ زِيتَا والمتسوِّلُ الفقيرُ الخدمةَ والصلاةَ في الكنيسة، ورغمَ برودةِ الأحجارِ التي ركعَتْ عليْها العذراءُ الجميلةُ فإنَّها لم تفتقدْ نعومةَ دفءِ المعطفِ الوَثِير؛ كانَ قلبُها دافئًا بحبِّها العظيمِ وبعبادتِها التي أدَّتها. وفي الحالِ انتهَتْ خدمتُها في الكنيسة، وراحَ الناسُ يتدفقُونَ إلى خارجِ الكنيسةِ، والتفتَتْ زِيتَا إلى حيثُ يركعُ الرجلُ بجوارِها، لترجُوَه أنْ يصاحبَها إلى البيتِ، ولكنَّ المتسوِّلَ قد ذهبَ!

راحَتْ زِيتَا تبحثُ عنه هنا وهناكَ في الكنيسةِ، ولكنَّه لم يكُنْ في أيِّ مكانٍ! وأمرَها حارسُ الكنيسةِ بخشونةٍ أنْ تذهبَ، لأنَّ الوقتَ قد حانَ لإغلاقِ الأبواب. مسكينةٌ زِيتَا، لم تدرِ ماذا تفعلُ! وشهقَتْ قائلةً: "ما كانَ لي أنْ أُعيرَه المعطفَ ولو شفقةً عليْه. كيفَ سأواجهُ سيِّدِي الآنَ؟" استدارَتْ في النهايةِ بقلبٍ مكلومٍ، ومضَت إلى البيتِ ببطءٍ. شحبَ وجهُ زِيتَا وراحَتْ ترتعدُ خوفًا حينَ دخلَتْ المنزلَ، ووقفَتْ ساكنةً أمامَ سيِّدِها.

تفحصَها سيدُها بعينَيْه سريعًا، ثم عبسَ وجهُه وسألَها: "أينَ المعطفُ الذي سلَّفتُكِ إيَّاه؟ ألمْ آمرُكِ أنْ تعيدِيه إليَّ سليمًا؟" كانَ صوتُه عاليًا وغاضبًا، وقد أصابَه هياجٌ شديدٌ لضياعِ معطفِه. وصلَتْ كلماتُه الغاضبةُ كالرعدِ خارجَ البيتِ، ووقفَتْ زِيتَا حزينةً تبكِي أمامَه برأسٍ منكَّسٍ.



قديسة لوكا العذراء تعير الشحاذ المعطف الوثير

ولكنْ من هذا الذى وقفَ إلى جوارِها ولمسَ ذراعَها بحُنُوٍّ كبيرٍ؟!
نظرَتْ زِيتَا لأعلَى، أيمكنُ أن يكونَ هو المتسوِّلَ؟ إنَّه بالتأكيدِ معطفُ سيدِها، ذاكَ الذى وضعَه بينَ يدَيْها، ولكنْ بدَا حولَ هذا الوجهِ المبتسمِ بلطفٍ ضوءٌ عجيبٌ أضاءَ المكانَ كلَّه.

حاولَتْ زِيتَا أن تنطقَ بكلمةٍ، ولكنْ قبلَ أنْ تأتِيَ الكلماتُ كانَ هو قد ذهبَ. سألَ السيدُ متعجبًا فى صوتٍ خفيضٍ: "مَن هذا الرجلُ؟!"
قالَتْ زِيتَا: "اعتقدْتُ فى البدايةِ أنه المتسوِّلُ الفقيرُ الذى سلَّفْتُه معطفَكَ، وقد أعادَه إليكَ سليمًا كمَا ترَى، ولكنَّنى حينَ رأيْتُ وجهَه أدركْتُ أنه المَلاكُ من عندِ الله!" خجلَ السيدُ من غضبِه الذى ظهرَ. كيفَ يلومُها الآنَ؟ منذُ ذلكَ اليومِ أصبحَتْ الكلماتُ رقيقةً، ولم يعدْ الصوتُ الغاضبُ يُسمَعُ فى المنزلِ، وبدَا أنَّ كلَّ الأفعالِ الشريرةِ والأفكارِ غيرِ المحببةِ والتصرفاتِ الأنانيةِ قد أُقصيَتْ فى حضورِ الخادمةِ العذراءِ المخلصةِ.

فى يومٍ صيفيٍّ اشتدَّتْ الحرارةُ، لدرجةِ أنه بدَا أنْ ليسَ ثمَّةَ هواءٌ للتنفسِ، حينَما ذهبَتْ زِيتَا لتجلبَ الماءَ مرَّ بالطريقِ حاجٌّ فقيرٌ، كانَ واهنًا مُتعَبًا وقد جفَّ حلقُه، ولمـَّا رأى زِيتَا توقَّفَ ورجَاها أنْ تمنحَهُ شربةَ ماءٍ تروِى ظمأَه. قالَتْ زِيتَا: "أتمنَّى فقطْ أنْ يكونَ نبيذًا". لأنَّها أدركَتْ شدةَ عطشِه، وأنَّهُ ليسَ من الحكمةِ شُربُ ذلكَ

الماء فى الحرارة العالية. ولكنْ ماذا علَيْها أن تفعلَ؟ ليسَ لدَيْها شيءٌ آخرُ لتعطيَهُ إيَّاهُ، وقد بلغَ به الظمأُ مداَهُ. لم يكنْ لدَيْها إلاَّ شيءٌ واحدٌ يحفظُه من الخطرِ؛ وهكذَا صلَّتْ وابتهلَتْ إلى اللهِ فى صمتٍ أنْ يباركَ الماءَ ويجعلَهُ غيرَ ضارٍّ؛ فلا يُؤذِى خادمَهُ الفقيرَ.

تبسَّمَ الحاجُّ لكلماتِها، وقالَ وهو يرفعُ الكوبَ إلى شفتَيْه: "أنا أيضًا أتمنَّى أنْ يكونَ نبيذًا". وراحَ يشربُ، ثم نظرَ إلى الخادمةِ المتواضعة التى ناولَتْه الماءَ، وقالَ: "ولكنَّهُ نبيذٌ، انظُرِى، إنَّهُ أشهَى نبيذٍ تذوقْتُه فى حياتِى!" وهكذَا عرفَتْ زِيتَا أنَّ اللهَ قد استجابَ لدعائِها.

مرَّتْ السنواتُ، وكبرَت زِيتَا فى خدمةِ سيدِها، عاملةً بجدٍّ وتفانٍ، حتى أدركَتْها النهايةُ، حينَ هبطَتْ الملائكةُ وحملَتْ رُوحَها الكريمةَ إلى السماء. لم تكن خادمةً عذراءَ فقيرةً فحسبُ، ولكن شعبَ لُوكَّا أدركَ أنَّ قدِّيسةً عاشَتْ بينَهم، وتزاحمُوا فى جنازتِها؛ فلربَّما يقبِّلُونَ يدَها أو يلمسُونَ رداءَها! وقد قيلَ أيضًا إنَّ نجمًا ساطعًا أشرقَ على المنزلِ يومَ وفاتِها، ولكنَّ حياتَها النقيةَ أكثرُ إشراقًا من أىِّ نجمٍ، وتشرقُ الآنَ بتألقٍ رقيقٍ أينَما تحلُّ ذِكرَاها.

* * * * *

القدِّيسُ ماركُ وصيادُ السمكِ

بالقُربِ من قصرِ دوجيسَ Doges في فينيسْيَا Venice(*) هنالكَ جسرٌ رخاميٌّ تعبرُهُ مئاتٌ من الأقدامِ النشطةِ طوالَ اليومِ، لكنَّ قليلينَ من الناسِ الذين يعبرُونَ هذا الطريقَ يلحظُونَ صورةً رخاميةً قريبةً من الرصيفِ، منزويةً في ركنٍ من الجسرِ. إنَّها صورةُ لوجهِ العذراءِ Madonna الرقيقِ وطفلِها، وفي الأسفلِ قاربَانِ لطيفَانِ، مع بعضِ كلماتٍ منقوشةٍ علَى الرخامِ.

أحيانًا عندَما ينزلقُ الجُندولُ gondola(**) أسفلَ الجسرِ تلحظُ واحدةٌ ذاتُ عينَيْنِ لماحتَيْنِ الصورةَ الرخاميةَ الصغيرةَ، وتسألُ صاحبَ الجندولِ: لماذا وُضِعَتْ (الصورةُ) هناكَ؟ يقولُ صاحبُ الجندولِ: "سيدتِي، هناكَ قصةٌ عجيبةٌ وحقيقيةٌ عن تلكَ العذراءِ الصغيرةِ، لا أستطيعُ أنْ أحكِيَها لكَ الآنَ بسببِ الضوضاءِ الكثيفةِ

(*) فينيسْيَا، أو فينيزيا، أو البندقية في التراث العربي :مدينة في شمال إيطاليا، عاصمة منطقة فينيتو، كانت تعرف بأنها "ملكة البحر الأدرياتيكي"، و"مدينة المياه"، و"مدينة الجسور"، و"مدينة النور". ويعتبرها الكثيرون واحدة من أجمل مدن العالم. (المترجم)

(**) الجُندول نوع من القوارب الخاصة بفينيسيا. (المترجم)

والجلبَةِ فى هذه القنواتِ الصغيرةِ، ولكنْ عندَما نكونُ فى عرضِ الماءِ الكبيرِ فى إحدى الليالِى سوفَ أحكِى لكِ لماذا توجدُ العذراءُ والقاربَانِ هناكَ."

وهذه هى القصةُ التى يحكِيها صاحبُ الجندولِ تحتَ النجومِ، على ماءِ البحرِ الهادئِ الساكنِ فى الخارجِ، وقد تلألأتْ الأضواءُ البعيدةُ لفِينيسيَا كقِلادةِ ألْماسٍ بانعكاساتِها الكبيرةِ فى المياهِ الهادئة، بدَا العالمُ لأعينِنا مثلَ كرةٍ زجاجيةٍ، لأنَّه مَن الذى يستطيعُ أنْ يخبرَكَ أينَ تبدأُ السماءُ وأينَ ينتهِى الماءُ؟ وأيُّهما حقيقيٌّ فعلًا، النجومُ فوقَ رءُوسِنا أم توائمُها المنعكسةُ تحتَنا؟ يخرجُ الوهجُ المتطايرُ ويتنفسُ ويختفِى ويتوهجُ ثانيةً، شعلةٌ صغيرةٌ من اللهبِ الأزرقِ تشقُّ وجهَ الماءِ معَ غوصِ المجدافِ فى عمقِ الماءِ تحتَنا، كلُّ شىءٍ حولكَ سحرىٌّ يلائمُ هذه الأسطورةِ الفِينِيسيةِ القديمةِ.

منذُ سنِينَ طويلةٍ عاشَ صيادُ سمكٍ عجوزٌ فى فِينِيسْيَا، كانَ رجلًا مسنًّا أمينًا، يبذلُ جهدًا شاقًّا ولا يملكُ فى الدنيَا سوى شباكِهِ وقاربِ صيدِه، ولكن ماذا يمكنُ أنْ يملكَ أكثرَ من ذلكَ؟ فى ليلةٍ ربطَ قاربَه إلى أسفلِ الجسرِ الأبيضِ العريضِ، ونامَ هناكَ هادئًا بارتياحٍ حتى الصباحِ، كانَ ذلكَ المكانُ يعدلُ قصرًا مرمريًا بالنسبةِ إليهِ.

كانت هناكَ عواصفُ فى الشتاءِ بالطبعِ، ولكنَّ قاربَه ظلَّ فى مأمنٍ دائمًا فى مأواهُ عندَ الجسرِ، حتى حانَتْ ليلةٌ رهيبةٌ. مضى معظمُ الشتاءِ، فقد كان ذلكَ فى شهرِ فبرايرَ حينَ هبَّتْ عاصفةٌ على فينيسْيَا، كما لو أنَّ أحدًا لمْ يرَ مثلَها من قبلُ قَطُّ. هاجَتْ العاصفةُ ثلاثةَ أيامٍ، وارتفعَ الماءُ أعلى وأعلى، حتى بدَا أنَّ فينيسيا ستُقتلعُ من جذورِها.

رسَا صيادُ السمكِ العجوزُ كعادتِه تحتَ الجسرِ بقاربِه الصغيرِ، لكنَّ دوامةَ الماءِ المجنونةِ حطَّمَتْ مرابطَ قاربِهِ، ثم جرفَتْهُ إلى عرضِ الماءِ، واستطاعَ بالكادِ وبصعوبةٍ بالغةٍ الوصولَ إلى ريفا دى سان ماركو Riva di San Marco، حيثُ وصلَ البرَّ مبتلاً ومرتعدًا، خوفًا مما قد يحدثُ له بعدَ ذلكَ. لم يكنْ فى وسعِه إلا أنْ يجلسَ وينتظرَ صابرًا حتى تهدأَ العاصفةُ، بينما الأمواجُ الغاضبةُ تضربُ قاربَه الصغيرَ، ويصيرُ الليلُ أكثرَ إظلامًا وإظلامًا، وفى الحالِ حيثُ جلسَ هناكَ وحيدًا، دنَا رجلٌ أسفلَ الدرجِ، ووقفَ إلى جوارِه. يعرفُ صيادُ السمكِ العجوزُ معظمَ الفينيسيِّينَ بنظرةٍ، لكنَّه لم يرَ هذا الرجلَ مِن قبلُ قَطُّ، قالَ الغريبُ: "صيادَ السمكِ، هلاَّ أوصلتَنى عبرَ الماءِ إلى سان جيورجيو San Giorgio؟"

ليسَتْ الجزيرةُ التى تقعُ عليها سان جيورجيو الآنَ بعيدةً، ولكنْ بينَنا منطقـةُ رمـاديةُ (مـضـطربة a grey belt of raging waves)، تضربُها الأمواجُ المندفعةُ أعلَى وأعلَى بالعاصفةِ العنيفةِ المُتجمِّعة. أشارَ صيادُ السمكِ العجوزُ إلى الأمواجِ ثم إلى قاربِه الصغيرِ، وصرخَ، وقد احتاجَ صياحًا أعلَى ليُسمعَ صوتُه فوقَ هديرِ الريحِ: "كيفَ لى أنْ أعبرَ بكَ؟ سيتحطمُ قاربى إلى قطعٍ صغيرةٍ فى لحظةٍ، وسنغـرقُ نحنُ الاثنَيْنِ". قـالَ الغـريبُ: "يجبُ أنْ أصلَ إلى سـان جيورجيو الليلةَ، وسأدفعُ لكَ بسخاءٍ".

حسنًا، رأى صيادُ السمكِ العجوزِ أنَّ تلكَ إرادةُ السماء، وسمعَ أنَّه سيُدفعُ له بسخاءٍ، فدخلَ القاربَ معَ الغريبِ، ونجحَ فى دفعهِ من الشاطئ. وكم كانَت دهشتُه أنْ وجدَ سهولةً تامةً فى قيادة القاربِ؛ مازالَتْ العاصفةُ غاضبةً حولَه، لكنَّ الأمواجَ بدَتْ وكأنَّها تَمُدُّ نفسَها فى ممرٍّ ناعمٍ أمامَهما.

لم يطُلْ الوقتُ هناكَ قبلَ أنْ يصلاَ إلى سان جيورجيو، وهبطَ الغريبُ هناكَ راجيًا صيادَ السمكِ العجوزَ أنْ ينتظرَه، وسرعانَ ما خرجَ الغريبُ من الكنيسةِ ثانيةً، ومعَه فارسٌ شابٌّ منتصبًا كسهمٍ مستقيمًا كقذيفةٍ، وكانَ حسنَ الوجهِ، تحبُّ أنْ تنظرَ إليه، كما كان شجاعًا وجميلاً. دخلَ كِلاَ الرجلَيْنِ القاربَ، قالَ الغريبُ بهدوءٍ، وقد

التفتَ إلى صيادِ السمكِ: "الآنَ ستُبحرُ بنا إلى سان نيكولو دى ليدو San Niccolo di Lido."

صاحَ صيادُ السمكِ العجوزُ، مُشيحًا بيدَيْه: "ولكنْ كيفَ يكونُ ذلكَ ممكنًا؟ حتى فى حالِ الطقسِ الموائمِ من المحالِ التجديفُ لهذه المسافةِ البعيدةِ بمجدافٍ واحدٍ". أجابَ الغريبُ بهدوءٍ: "سيكونُ ممكنًا لكَ، وتذكَّرْ أنَّه سيُدفعُ لكَ بسخاءٍ". ألقى صيادُ السمكِ ببصرِه إلى امتدادِ الماءِ الغاضبِ ثم إلى الوجهِ الهادئِ للغريبِ، والتقطَ مجدافَه ثانيةً، وقال: "حسنًا، سنغرقُ جميعًا بالتأكيدِ".

لكنَّه اندفعَ مرةً أخرى فى اتجاهِ سان نيكولو دى ليدو، ومثلَما حدثَ من قبلُ تمامًا، مدَّتْ الأمواجُ نفسَها فى ممرٍّ ناعمٍ تحتَ القاربِ الصغيرِ، وجدَّفَ صيادُ السمكِ بلا أدنى صعوبةٍ حتى أتَوْا إلى سان نيكولو دى ليدو.

خرجَ الرجلانِ من القاربِ ورجَوَا صيادَ السمكِ ثانيةً أنْ ينتظرَهما، وفى هذه المرةِ رجعَا معَ رجلٍ عجوزٍ يرتدى رداءَ أُسقُفٍ "بيشُوب" bishop(*) كانَ له وجهٌ لطيفٌ عطوفٌ، حتى إنَّ قلبَ صيادِ السمكِ العجوزِ المرتعبِ قد اطمأنَّ بمجردِ النظرِ إليه.

(*) مطران مكرس ordained أو عضو من رجال الدين المسيحيين، ومكتب الأسقف واحد من ثلاثة مكاتب وزارية داخل المسيحية، والأسقفية أعلى رتبة من الكهانة. (المترجم)

حينَ دخلَ الثلاثةُ القاربَ آمنينَ قالَ الغريبُ: "جدِّفْ بنا الآنَ إلى بوابتَيْ القصرَيْنِ". قال صيادُ السمكِ مرتعدًا من الخوف: "لكنَّه عرضُ البحرِ، وسنكونُ غرقَى بالتأكيدِ". قالَ الغريبُ: "جدِّفْ بشجاعةٍ، ولا تخفْ".

عوَتْ الرياحُ وهدَرَتْ الأمواجُ وزعقَتْ العاصفةُ أعلى من ذى قبلُ، وبدَا أنَّه من المحالِ أنْ يصمُدَ قاربٌ صغيرٌ فى مثلِ هذه الأمواهِ الغاضبةِ. وحينَما أتَوْا إلى بواباتِ البحرِ رأَتْ عيونُ صيادِ السمكِ العجوزِ منظرًا مرعبًا، رأى سفينةً ضخمةً أو سفينةً قديمةً بكلِّ أشرعتِها، تنجرِفُ تجاهَهم، فى مقابلِهم تمامًا. كانتْ السفينةُ مزدحمةً فى كلِّ ركنٍ منها بالجنِّ الأسود **black demons** الذين علَتْ صرخاتُهم أعلى من صوتِ الريحِ. تقدمُوا منطلقينَ، مخترقينَ الأمواجَ، وركعَ صيادُ السمكِ العجوزُ على ركبتَيْه، وبدأ يتلُو صلواتِه، لأنَّه ظنَّ أنَّ قاربَه سيُبتلَعُ فى لحظةٍ.

نهضَ الغريبُ والفارسُ والأُسقفُّ العجوزُ على أقدامِهم، وبأيدٍ مرتفعةٍ عاليًا رسمُوا علامةَ الصليبِ بهدوءٍ حينَ اقتربَتْ سفينةُ الشيطانِ. هدأَ الماءُ فى الحالِ وسكنَتْ الريحُ واختفَتْ سفينةُ الشيطانِ بصوتٍ كدوِيِّ الرعد، قالَ الغريبُ: "الآنَ جدِّفْ بنا للعودةِ من حيثُ أتينا". أطاعَ صيادُ السمكِ مرتعدًا، متعجبًا عظيمَ التعجبِ، متسائلاً عن معنى هذا كلِّه، ثَمةَ شيءٌ واحدٌ كان متأكدًا

منه، أنَّ سـفـينةَ الشـيطانِ كـانَتْ فى طريقِـهـا لإغـراقِ فـينيسـيـا وتدميرِها، وقد تهلَّلَ فرحًا لاعتـقادِهِ أنَّ مدينتَه المحبوبةَ أصبحَتْ آمنةً الآنَ.

ثم عـادُوا إلى سـان نيكولو دى ليـدو، وهناك تركُـوا الأُسـقفَّ العـجوزَ، ثـم إلى سـان جـيـورجـيـو، وهناك نزلَ الفـارسُ الشـجـاعُ بسكونٍ، ولكنْ حينَ جدَّفَ صيادُ السمكِ عائدًا إلى ريفا دى سان ماركو وأوشكَ الغريبُ على النزولِ، راحَ يذكِّرُه بوعدِهِ أنْ يدفعَ له.

قال (الصـيـادُ) لنفسـه: "المعـجزاتُ أشـيـاءُ رائعةٌ، ولكنَّنى أريدُ شيئًا أكثرَ من المعجزاتِ". لذا توقَّفَ واضـعًا قبعتَه فى يده، وطلبَ إلى الغريبِ أنْ يدفعَ له كما وعدَه، قالَ الغريبُ: "أنتَ مُحقٌّ، ويجبُ ألاَّ أنساكَ، ولسوفَ تُجزَى جزاءً حسنًا. هل تعلمُ لحسابِ من كنتَ تعـملُ الليلةَ؟ أنا القـدِّيسُ مـاركُ Saint Mark، راعى هذه المدينة، والفارسُ الشابُّ الذى اصطحبناه معنا كانَ القدِّيسَ جورج George الشجاعَ، والأُسقفُّ لم يكنْ سوى القدِّيسِ نيكولاسَ Nicholas، وقد أنقذْنا فينيسيا معًا، لأنَّه لولانا لدمَّرَها الشياطينُ تمامًا. عليكَ أن تذهبَ غدًا إلى الدَّوقِ Doge(*) وتخبرَه بكلِّ ما رأيتَ، وكيفَ أُنقِذَتْ فينيسيا بمساعدتِكَ، وسوفَ يكافئُكَ".

هزَّ صيادُ السمكِ العجوزُ رأسَه، وسألَ: "وكيفَ يعرفُ الدَّوقُ

(*) Doge or Duke. (المترجم)

أنِّى أقولُ الصِّدقَ؟" فعلى الرغمِ من أنَّه وجدَ القدِّيسَ ماركَ عظيمَ الوَقارِ، وشعرَ كم كانَ شرفًا عظيمًا أنْ يتحدَّثَ إليه، فقد بقىَ لديه قليلٌ من القلقِ بشأنِ الأجرِ. حينئذٍ خلعَ القدِّيسُ ماركُ خاتمَه من إصبعِه، وسلَّمَه إلى صيادِ السمكِ العجوزِ، وقالَ: "خُذْ هذا الخاتمَ، وأرِه للدُّوقِ، وأخبرْه أننى أعطيتُه إياكَ، فإذا ما ارتابَ فى كلامِكَ فاطلبْ منه أنْ ينظرَ فى كنزِ القدِّيس ماركَ، وسوفَ يكتشفُ أنَّ الخاتمَ غيرُ موجودٍ".

وهكذا أخذَ صيادُ السمكِ العجوزُ الخاتمَ وشكرَ القديسَ، وفى اليومِ التالى ذهبَ إلى الدوقِ مبكرًا قدرَ استطاعته، وأخبرَه قصةَ ما حدثَ كاملةً، عارضًا الخاتمَ عليه. أرسلَ الدوقُ بسرعةٍ للبحثِ عن خاتمِ القدِّيسِ فى الكنزِ الذى كان يُحفظُ فيه دائمًا، ولكنَّهم اكتشفُوا أنَّه قد اختفَى، لذلكَ كانُوا متأكدِينَ أنَّ القدِّيسَ ماركَ نفسَه هو الذى أعطاه لصيادِ السمكِ العجوزِ، ومن ثَمَّ أُقيمَتْ صلاةُ الشكرِ فى فينيسيا، وذهبَتْ مواكبُ مهيبةٌ إلى الكنائسِ الثلاثةِ حيثُ ترقدُ عظامُ القدِّيسينَ الثلاثةِ.

لم يُكافأْ صيادُ السمكِ العجوزُ بالذهبِ فقطْ، ولكنَّه مُنحَ فضلاً مؤكدًا؛ لقد كانَ الوحيدَ الذى مُنحَ امتيازَ بيعِ الرمالِ الفضيةِ لشاطئ ليدو Lido، وبهذا صارَ أغنى صيادِ سمكٍ فى فينيسيا،

ولكنه رغمَ ثرائِه فقد عاشَ دائمًا فى قاربِه الصغيرِ تحتَ الجسرِ الرخامىِّ، وعندَما ماتَ أمرَ حُكّامُ المدينةِ بعملِ هذه الصورةِ الرخاميةِ مع القواربِ المنحوتةِ تحتَها؛ تخليداً لذكرى صيادِ السمكِ العجوزِ، الذى ساعدَ فى إنقاذِ فينيسيا من انتقامِ طاقمِ الشياطينِ فى تلكَ الليلةِ المرعبةِ.

دومينيكا

على بُعدِ أميالٍ ليسَت كثيرةً خارجَ مدينةِ فلورنسا في وادي أرنو Arno(*) الخصيبُ تقعُ قريةٌ صغيرةٌ تسمَّى باجنو ريبولي Bagno a Ripoli(**)، هنا منذُ سنواتٍ عديدةٍ عديدةٍ عاشَتْ فتاةٌ صغيرةٌ تُدعى دومينيكا Dominica في واحدٍ من أكثرِ بيوتاتِ القريةِ فقرًا، كانَ أبوها وأمُّها مزارعَيْنِ فقيرَيْنِ، يعملانِ في الحقولِ طَوالَ اليومِ، وقد تعلَّمَتْ دومينيكا الصغيرةُ مبكرًا أنْ تُعنَى بنفسِها في أثناءِ الساعاتِ الطويلةِ التي تُتركُ فيها وحيدةً.

أدركَتْ أمُّها أنْ ليسَ ثمَّةَ احتمالٌ أنْ تتعرضَ دومينيكا لأيِّ أذًى، رغمَ كونِ عمرِها مجردَ خمسةِ أعوامٍ، لأنَّها كانَتْ فتاةً صغيرةً حكيمةً ونادرًا ما أُصيبَتْ بأيِّ ضررٍ، ربَّما تلعبُ حولَ المنزلِ، أو تخرجُ لتجمعَ ورودًا في الحقولِ حينَ لا تكونُ الشمسُ شديدةَ الحرارةِ، وحينَ تجوعُ فإنَّها تعرفُ أينَ تجدَ شريحةَ الخبزِ الأسمرِ وحفنةً من فاكهةٍ وُضعَتْ جانبًا لعشائِها.

(*) فان أرنو نهر في منطقة توسكانا، وهو أهم نهر في وسط إيطاليا بعد التيبر. (المترجم)
(**) تقع على بعد نحو ٧ كيلو مترات إلى الجنوب الشرقي من فلورنسا. (المترجم)

لم تفكرْ دومينيكا فى كونِها وحيدةً قطُّ، كانَ رأسُها مشغولاً دائمًا بأفكارٍ وخططٍ، وحينئذٍ تصاحبُها أيضًا صورةُ السيدةِ العذراءِ Madonna والمسيحِ الطفلِ Gesu Bambino دائمًا على ما يبدو، فقد عُلِّقَتْ عاليةً على جدارِ الحجرةِ الصغيرةِ، وقد ألقَى المصباحُ المُعلَّقُ أمامَها ضوءًا خافتًا على وجهِ الأمِّ. كم تمنَّتْ دومينيكا لو أنَّ الصورةَ عُلِّقَتْ لأسفلَ، كى تتمكَّنَ من أنْ تراها أفضلَ، فحتى حينَقفزَتْ فوقَ الكرسىِّ الخشبىِّ القديمِ، ووقفَتْ على أطرافِ أصابعِ قدمَيْها ،لم تتمكَّنْ من رؤيتِها بوضوحٍ.

لقد اسودَّتْ بفعلِ الدخانِ والزمنِ، وكان الضوءُ رديئًا، وقد تمكَّنَتْ من رؤيةِ الابتسامةِ الحلوةِ لوجهِ العذراءِ وهى تنظرُ لأسفلَ، لكنَّ بقيةَ الصورةِ كانَتْ قاتمةً، وبالكادِ استطاعَتْ دومينيكا أنْ تحدِّدَ فقطْ خطوطَ الملامحِ الخافتةَ للطفلِ المُقدَّسِ. لكنَّها كم تحبُّ هذه الصورةَ! كانَتْ العذراءُ والرضيعُ صاحبَيْها ورفيقَيْها طَوالَ اليومِ، وسوفَ تخبرُ أمَّها العطوفَ بكلِّ الأفكارِ التى دارَتْ فى رأسِها وهى جاثيةٌ على ركبتَيْها فوقَ الكرسىِّ الخشبىِّ، حيثُ إنَّها لا تملُّ من سماعِها، وتبتسمُ لها دائمًا بلُطفٍ، وتفهمُها دائمًا.

أولُ شىءٍ تحبُّ دومينيكا أنْ تفعلَه كلَّ صباحٍ هو أنْ تتجوَّلَ فى الحقولِ وتجمعَ الزهورَ لأجلِ عذرائِها، كانَ ثَمَّةَ رفٌّ صغيرٌ هناكَ

أسـفلَ الصـورةِ، لا تكادُ تصلُ إلاَّ إليـه، وهـناكَ تضـعُ قُـربانَهـا فى إبريقٍ قديمٍ مشقوقٍ، كانَتْ شديدةَ التدقيقِ فى أىِّ نوعٍ من الأزهارِ تهبُـه للعذراءِ، وإذا أمكنَ فـإنَّها دائمًا تجمعُ باقةَ أُقحوانٍ صـغيرٍ ورديةَ الأطرافِ. كانَتْ الأزهـارُ التى أحبَّتـها دومينيكا نفسُـها حبًّا أفضلَ، وكـانَتْ واثقـةً أنَّ يسـوعَ الطفلَ Gesu Bambino سيـحبُّـها أيضًـا، مـثلَ كلِّ الأطفـالِ. إنهـا لا تعـملُ عـرضًـا بـالغًـا، لأنَّ أعـوادَ الزهـورِ غـالبًـا مـا كـانَتْ قـصـيـرةً جـدًّا، لا تسـتطيعُ أنْ تحـملَ رءوسَـها[تيـجانَهـا]، لكنَّ العـذراءَ تعرفُ طرائقَ الأقـحوانِ، وليـسَتْ بحاجةٍ إلى اصطناعٍ أىِّ أعذارٍ عن تمرُّدِها.

العـائقُ الوحـيدُ الذى اعتـرضَ سـعـادةَ دومـينيكا أنَّ الصـورةَ قد عُلِّقَتْ عـاليـةً هكذا، وكـانَتْ تخبـرُ العـذراءَ كلَّ صـبـاحٍ كم كـان ذلكَ صـعبًا عليها. قـالتْ، وهى تنظرُ إليـها وقد عقدَتْ يدَيْها: "سيدَتى، أعرفُ أنَّكِ تحـملينَ المسـيحَ الطفلَ بينَ ذراعَيْكِ، ولكنَّنى لا أسـتطيعُ رؤيتَه مطلقًا. أنتِ طيِّبَةٌ وصـالحةٌ، وأنتِ تعرفينَ كم أنا مشـتاقةٌ إلى رؤيةِ وجهِهِ، ألنْ تهبطِى يومًا وتُرِينِى إيَّاه إذا كنتُ صـالحةً جدًّا؟"

يتـأثرُ وجهُها ويزدادُ شوقًا كلَّما صلَّتْ هذه الصلاةَ أكثرَ وأكثرَ مرات مـتكررةً، وكـادَ يبدُو كـمـا لو أنَّ العـذراءَ لا يعنيـهـا مطلقًا أنْ ترِيَهـا طفلَهـا، حـيثُ إنَّهـا لمْ تقـتـربْ منـهـا قطُّ، وبقىَ الظلُّ يـغطِّى

الرضيعَ لم يزايلْه. جمعَتْ دومينيكا أُقحوانَها ذاتَ صباحٍ كعادتِها، وكانَت تلعبُ مع نفسِها بهدوءٍ فى الحجرةِ الصغيرةِ، حينَ سمعَتْ صوتَ طرقةٍ لطيفةٍ على البابِ، أسرعَتْ عابرةً الأرضيةَ وفتحَتْ البابَ فتحةً صغيرةً جدًا، وألقَتْ نظرةً سريعةً لِترَى مِن هناكَ.

تعرفُ دومينيكا أنَّه ليس من الحكمةِ أنْ تفتحَ البابَ الخارجىَّ وتسمحَ لأىِّ غريبٍ بالدخولِ، وقفَتْ امرأةٌ فقيرةٌ متعبةٌ على عتبةِ البابِ، وقد غطَّى شالُها القديمُ ربطةً صغيرةً ملفوفةً، كانَتْ دومينيكا واثقةً أنَّ بها طفلاً رضيعًا. سألَتْ المرأةُ وهى تبتسمُ للوجهِ المشتاقِ الذى ألقَى نظرةً سريعةً مِن خلالِ البابِ الموارِبِ نصفِ المفتوحِ: "هل لى أنْ أدخلَ وأرتاحَ برهةً، فالشمسُ شديدةُ الحرارةِ ولا أجدُ ظلًّا للراحةِ". قالَتْ دومينيكا وهى تفتحُ البابَ على اتساعِه: "ادخلِى، ادخلِى، ادخلِى واستريحِى".

سحبَتْ الكرسىَّ الخشبىَّ، وابتسمَتْ ابتسامةً خجولةً مرحِّبةً، بينَما جلسَتْ المرأةُ الفقيرةُ متعَبةً، وبدأَتْ تفكُّ الربطةَ الصغيرةَ الملفوفةَ فى شالِها، كانَتْ دومينيكا تحبُّ الأطفالَ الرضعَ، ووقفَتْ تلاحظُ فكَّ الشالِ باهتمامٍ شديدٍ، ثم تحدثَتْ المرأةُ ثانيةً، قالَتْ: "لقد أتينا من طريقٍ طويلٍ متعبٍ، ولمْ نتذوَّقْ أىَّ شىءٍ اليومَ. سأكونُ شاكرةً جدًا إذا أعطيتِنى قضمةً مِن خبزٍ، والرضيعُ جائعٌ أيضًا،

لأجلِ محبةِ الرضيعِ يسوعَ، أيَّتُها العذراءُ الصغيرةُ، أعطينا شيئًا لنأكلَه". قالَتْ دومينيكا مبتهجةً: "سوفَ تحصلينَ على عشائِى، كم أنا سعيدةٌ لأنَّنى لم آكلْه بعدُ".

أسرعَتْ إلى دولابِ الطعامِ، وأنزلَتْ شريحةَ الخبزِ الأسودِ الثخينةَ، وأحضرَتْ أيضًا حَفنةَ العنبِ الأبيضِ الحُلوِ الذى وضعَتْه أمُّها المدبرةُ لها جانبًا ذلكَ الصباحَ. قالَتْ دومينيكا: "هذا كلُّ ما عندِى، لكنْ كم أتمنَّى لو كانَ هناكَ بعضُ اللبنِ الحليبِ للرضيعِ". قالَتْ المرأةُ برقَّةٍ بالغةٍ: "لقد أعطيتِنا كلَّ عشاءَكِ أيَّتُها الصغيرةُ، وليسَ بوسعِكِ أكثرُ من ذلكَ، لكن لو سقَيْتِنى كوبَ ماءٍ باردٍ من البئرِ فسيكونُ بديلاً من لبنِ الحليبِ".

كان إناءُ الماءِ النحاسىُّ ثقيلاً، ولكنَّ دومينيكا جاهدَتْ بقوَّةٍ فى حملِه عبرَ الممرِّ إلى عينِ الماءِ القريبةِ، وقبلَ أنْ يمرَّ وقتٌ طويلٌ رجعَتْ لاهثةً، ومعَها أكبرُ كميةٍ من الماءِ استطاعَتْ إحضارَها، دونَ أنْ ينسكبَ منها شىءٌ فى الطريقِ. وضعَتْ الإناءَ على الأرضِ ثم اعتدلَتْ واقفةً لتأخذَ نفَسًا عميقًا.

لكنْ، ما الذى جعلَ الحجرةَ الصغيرةَ فجأةً مضيئةً هكذا، أكثرَ إشراقًا من الشمسِ الساطعةِ بالخارجِ؟ حدَّقَتْ دومينيكا فى الأمِّ والطفلِ، ظهرَ ضوءٌ خفيفٌ مشرقٌ حولَ رأسِ الأمِّ ودارَتْ هالةُ ضوءٍ

أكثرَ إشراقًا حولَ رأسِ الرضيعِ النائمِ. حبسَتْ دومينيكا أنفاسَها تقريبًا بشهقةِ خوفٍ، لكنَّ الأمَّ مدَّتْ يدَها خارجًا وجذبَت الطفلةَ قريبًا إلى ركبتِها، وسألَتها: "ألا تعرفينَني أيَّتُها الفتاةُ الصغيرةُ؟" نظرَتْ دومينيكا لأعلَى، ولمْ تعُدْ خائفةً، لقد كانَتْ عذراءَها التى كانَتْ تُنزلُ نظرتَها إليها بعطفٍ بالغٍ.

قالَ الصوتُ العطوفُ مرةً ثانيةً: "لقد جئتُ لأُباركَ صلاتَكِ، ولأُريكِ رضيعِي، ولكنْ كانَ علىَّ أنْ أتحقَّقَ مما إذا كنتِ تستحقِّينَ، لقد أعطيْتِ كلَّ ما عندَكِ لأجلِ محبةِ يسوعَ الرضيعِ، والآنَ سوفَ تنظرينَ إلى وجهِهِ". بعدَ ذلكَ أزاحَت الأمُّ الشالَ، وانحنَتْ دومينيكا ونظرَتْ بكلِّ قلبِها فى عينَيْها، وقد ضمَّتْ يدَيْها بإحكامٍ، وهمسَتْ: "إنَّه أجملُ كثيرًا مما كنتُ أعتقدُ، ولكنْ أخبرِينِى يا سيدَتِى، لماذا هو صغيرٌ هكذا؟" قالَتْ الأمُّ بحنانٍ: "إنَّه صغيرٌ لأنَّ حبَّه فى قلبِكِ ما زالَ صغيرًا، وحينَ ينمو حبُّه كبيرًا فى قلبِكِ سوفَ يكبرُ هو أيضًا".

ركعَتْ دومينيكا واقتربَتْ ملاصقةً لركبةِ العذراءِ، وقالَتْ: "الآنَ وقد جئتِ حقًّا، لن تأخذِى الرضيعَ بعيدًا ثانيةً، وإلاَّ إذا كانَ ذهابُكِ محتَّمًا فخُذِينِى معكِ، لأنَّنى يجبُ أنْ أبقَى دائمًا قريبةً منه". لكنَّ العذراءَ هزَّتْ رأسَها، وقالَتْ: "لا يمكنُنى أنْ آخذَكِ الآنَ، ولا يجوزُ أنْ أبقَى، ولكنَّكِ يومًا ما سوفَ تريْنَه ثانيةً، إذا نما حبُّه نموًا كبيرًا

فى قلبكِ، إذا تعلمتِ أنْ تؤدِّى عملَه هنا، أنْ تعتنِى بصغارِه الفقراءِ والمرضى والمحزونينَ، لأجلِ خاطرِه العزيزِ، وحينئذٍ عندَما يكونُ مستعدًّا سيعودُ ويأخذُكِ للبيتِ، حيثُ ستكونينَ قريبةً منه للأبدِ".

تجمَّعَتْ الدموعُ فى عينَىْ دومينيكا البُنِّيتَيْنِ، وللحظةٍ بدَا كلُّ شىءٍ معتمًا، ثم رفعَتْ يدَها بسرعةٍ لتمسحَ دموعَها بعيدًا، حتى تتمكَّنَ مِن إلقاءِ نظرةٍ مرةً أخرى على وجهِ الطفلِ الصغيرِ النائمِ، لكنَّ الحجرةَ أعتمَتْ مرةً ثانيةً. لم يعدْ هناكَ أحدٌ جالسًا على الكرسيِّ الخشبيِّ حيثُ ركعَتْ، مدَّ المصباحُ ضوءَه فوقَها عاليًا إلى صورةِ العذراءِ، وبقىَ الظلُّ الثقيلُ مظلمًا كعادتِه على خطِّ رسمِ الرضيعِ يسوعَ.



دومينيكا لدي رؤيتها المسيح الطفل

جثَتْ دومينيكا راكعةً هناكَ، محدِّقةً فى الكرسىِّ الخالى، وقد جفَّتْ دموعُها كلُّها، ولمعَتْ عيناها كنجمتَيْنِ؛ فلقد رأتْ المسيحَ الطفلَ، ولن يختفىَ ذلكَ المشهدُ أبدًا مِن قلبِها مرةً أُخرَى.

حينَما قصَّتْ هذه القصةَ الرائعةَ فى السنواتِ التاليةِ، سألَها الناسُ باحترامٍ أنْ تخبرَهم ماذا كانَتْ صورتُه حيثُ كانَ راقدًا على حِجرِ أمِّه، لكنَّ دومينيكا كانَتْ فقط تهزُّ رأسَها وتقولُ إنَّها لا تستطيعُ أنْ تتكلمَ. لا توجدُ كلماتٌ بشريةٌ تستطيعُ أنْ تصفَ جمالَ ذلكَ الوجهِ، ولكنْ ربَّما كانَتْ النظرةُ إلى وجهِها والضوءُ الرائعُ الذى يأتى عينَيْها حينَ تتحدَّثُ عن المشهدِ، ربَّما كانَتْ تخبرُ أكثرَ مما تستطيعُ الكلماتُ.

كبرَتْ دومينيكا الصغيرةُ وصارَتْ قدِّيسةً عظيمةً، وقد أطلقُوا عليها لقبَ "الأخت السماوية" The heavenly sister حينَ ذهبَتْ لخدمةِ ربِّها Lord her فى الديرِ، ولمَّا أتمَّتْ مهمَّتَها على الأرضِ رأَتْ مرةً أخرى مشهدَ الربِّ الذى أحبَّته، ولكنَّه لم يأْتِ هذه المرةَ فى صورةِ طفلٍ صغيرٍ عاجزٍ، بل فى قوتِه كاملةً، تمامًا كما كبُرَ حبُّه فى قلبِها.

تُرى هل عرفَته ثانيةً؟ آه! نعم، فإنَّ النظرةَ التى رأَتها فى وجهِ الرضيعِ يسوعَ لم تغِبْ عن ذاكرتِها مطلقًا، وقد عرفَتْه فى الحالِ،

عرفَتْ أنَّه أتَى ليحقِّقَ الوعدَ الذى كانَ فى ذلكَ الصباحِ المشمسِ منذُ سنِينَ، حينَما كانَ رضيعًا عاجزًا راقدًا بينَ ذراعَىْ أمِّه... "سيعودُ ويأخذُكِ للبيتِ، حيثُ ستكونِينَ قريبةً منه للأبدِ".

* * * * *

كاستيللاَّنو

جلسَ الكونتُ كاستيللاَّنو Count of Castellano في صالةِ المناسباتِ في قصرِه، مستغرقًا في التفكيرِ بعمقٍ، لقد طالَ عمرُه، وهو يعرفُ أن حياتَه ستصلُ إلي نهايتِها سريعًا جدًا، وقد جعلَه التفكيرُ في تلكَ النهايةِ يشعرُ بالاضطرابِ والخوفِ. وبدَا أنَّ كلَّ ما ارتكبَ من أعمالٍ شريرةٍ ظهرَ وطاردَه كأنَّه أشباحٌ ساخطةٌ، وكانَتْ سوداءَ مرعبةً لدرجةِ أنَّه أخفَى وجهَه ولمْ يجرؤْ على النظرِ إليها.

صرخَ جمعٌ من الأشباحِ الرماديةِ، وهم مجبرُونَ على النواحِ: "نحن الفقراءُ الذين سرقتَنا". وصاحَتْ زُمرةٌ تشبهُ الشياطينَ: "نحن الشهواتُ الآثمةُ التي سمحْتَ لها أنْ تقيمَ في قلبِكَ". وتأوَّهَتْ سلسلةٌ من الأطيافِ الآسفةِ: "نحن أيامُكَ الضائعةُ وفرصُكَ الضائعةُ وكلُّ الأعمالِ الخيِّرةِ التي تركْتَها ولمْ تفعلْها". كلُّ ذلكَ كانَ حقًّا فعلاً، لقد امتلكَ الثروةَ وكلَّ ما يتمنَّاه قلبُه، فما الخيرُ الذى فعلَه مطلقًا؟ كم مرةً تضرَّعتْ إليه امرأتُه الرقيقةُ أنْ يتوبَ؟ ولكنْ كلَّما زادَتْ من

دعوته أصبحَ أشدَّ سوءًا. لقد عرفَ أن الشياطينَ مسرورةٌ لأنَّها تدركُ أنَّها تمتلكُ رُوحَه وتحتفظُ بها.

فُتِحَ بابُ صالة المناسباتِ بحذرٍ، وشوهدَ فيه خادمٌ، قالَ: "سيدى Signor، إنَّ الأبَ المقدَّسَ فى طريقِه إلى روما، ويلتمسُ استضافتَه الليلةَ". قالَ كاستيللانو: "دعْه يدخلْ". غلبَتْ الدهشةُ الخادمَ الذى نادرًا ما جرؤَ على إبلاغِ الرسالةِ، دخلَ القَسُّ واستقبلَه الكونتُ العجوزُ مجاملاً، وأمرَ بوضعِ اللحمِ والنبيذِ أمامَه، وأضافَ قائلاً: "لم أعملْ إلاَّ قليلًا من أعمالِ الخيرِ فى حياتى، وأستطيعُ على الأقلِّ أنْ أُظهرَ الكرمَ لواحدٍ من خدمِ الربِّ".

ثم راحَ يقصُّ على القَسِّ كلَّ ما كانَ يفكرُ فيه حينَ كانَ جالسًا هناكَ بمفردِه. تنهدَ القَسُّ بعمقٍ، ونظرَ إلى العجوزِ بجدٍّ، وسألَه: "ماذا ستكونُ فائدةُ كلِّ ذهبِكَ، وقصرِكَ الرائعِ، وأعيادِكَ، ومسراتِكَ، حينَ تأتى الشياطينُ لتحملَ رُوحَكَ؟" قالَ كاستيلانو وهو يحملقُ بعينَيْنِ مضطربتَيْنِ فى الوجهِ الجادِّ للأبِ المقدَّسِ: "أرجو ألاَّ أكونَ قد تأخرتُ عن وقتِ التوبةِ". أجابَ القَسُّ: "أبدًا، إنَّه ليس متأخرًا، قدِّمْ اعترافَكَ الآنَ وسأصلى للربِّ لتنالَ الرحمةَ".

لكن لمَّا استمعَ الأبُ الطيبُ للقائمةِ الطويلةِ لمعاصيه السوداءِ أفزعَتْهُ، حتى لم يستطعْ أنْ يتكلمَ، وقال فى النهايةِ: "حقيقةً، لديكَ

وقتٌ قليلٌ للتوبةِ من هذه الحياةِ الطويلةِ الآثمةِ الضائعة، ولكنْ إذا قدَّمْتَ كفَّارةً لمدةِ سنتَيْنِ فربَّما أنزلَ اللهُ الرحمةَ على رُوحِكَ". هزَّ الكونتُ رأسَه حينَ سمعَ هذه الكلمات، وسألَ: "كيف أستطيعُ أنْ أقدمَ كفَّارةً لمدةِ سنتَيْنِ؟ أنا الذى لا أستطيعُ أنْ أُمضىَ يومًا دونَ أنْ أرتكبَ معصيةً؟ لن أبدأ بفرضِ عهدٍ للهِ وأنا أعرفُ أنَّه مستحيلٌ علىَّ أنْ أحفظَه".

قالَ القَسُّ: "حسنًا، مؤكدٌ أن آثامَكَ فاحشةٌ، ولكنْ ربَّما يرضى الربُّ الطيِّبُ بكفَّارةِ السنةِ". أجابَ الكونتُ: "وليسَ هذا ممكنًا، فعامٌ سيكونُ سلسلةً طويلةً، وتوبتى لن تستمرَّ نصفَ ذلكَ الوقت، لا، لا فائدةَ من إعطائى شهرًا، ولا حتى أسبوعًا، ليسَتْ عندِى القوةُ الكافيةُ لأثقَ بنفسِى، أستطيعُ فقط أنْ أعدَ بأنْ أقدمَ كفارةً لليلةٍ واحدةٍ بكاملِها، وإذا لم يكنْ ذلكَ مفيدًا فيجبُ أنْ أفقدَ كلَّ أملٍ فى الغفرانِ". عندَ ذلكَ رأى القَسُّ أنَّ الكونتَ كانَ جادًا حقًّا، وتمنَّى لو أنَّ رُوحَه تنجو، وقالَ: "اللهُ وحدَه هو الذى يستطيعُ أنْ يمنحَ التوبةَ النصوحَ، والوقتُ لا يساوى شيئًا عندَه، اذهبْ إذنْ إلى الكنيسةِ الصغيرةِ المتهدمةِ التى مررْتُ بها فى طريقى إلى هنا، واقضِ الليلةَ فى صلاةٍ أمامَ الهيكلِ، ولكنْ تأكَّدْ ألاَّ يصرفَكَ شىءٌ عن صلاتكَ ولا يداخلَكَ فيها، لأنَّكَ يجبُ أنْ تكونَ خالصًا للهِ فقط فى هذه الليلةِ".

نهضَ الكونتُ بقلبٍ مضيءٍ واستعدَّ للانطلاقِ إلى الكنيسةِ الصغيرةِ، لقد عقدَ العزمَ بقوةٍ على أنْ يصليَ تكفيرًا عن آثامهِ، ولكنْ بينَما كانَ راكعًا في الكنيسةِ الصغيرةِ يتلو صلواتِه التي لمْ تكنْ تخرجُ من شفتَيْه منذُ كانَ طفلاً صغيرًا، فإنَّ الشياطينَ التي لمْ تكنْ تفارقُه مطلقًا صكَّتْ أسنانَها غيظًا وغضبًا.

صرخَ رئيسُ الشياطينِ: "ما كلُّ هذا؟ لقد عملْنا سنواتٍ طويلةٍ، وانتظرْنا لسنواتٍ طويلةٍ وانتظرْنا روحَ هذا الرجلِ، والآنَ في نهايةِ الأمرِ يسعى ليخدعَنا فيما هو حقُّنا المؤكَّدُ تحتَ سيطرتنا؟" قال شيطانٌ صغيرٌ ضاحكًا: "أُوه، اتركْه لي، أنا أعرف دائمًا كيفَ أُغويه، ولنْ أفشلَ الآنَ". قالَ رئيسُ الشياطينِ: "إذنْ اخرُجْ، ولا تسترِحْ حتى تُنهيَ عملَكَ". بادرَ الشيطانُ الصغيرُ مسرعًا، وتشبَّه بأختِ الكونتِ كاستيلَّانو، وهرولَ إلى الكنيسةِ الصغيرةِ حيثُ يركعُ الكونتُ أمامَ الهيكلِ، صاحَ الشيطانُ: "أخي، أخي، النجدةَ، النجدةَ! إنَّ قصرَنا محاطٌ بالأعداءِ، لقد أفسدُوا أراضيكَ كلَّها، وقد هربَ كلُّ الخدمِ، وزوجتُكَ وبناتُكَ بلا حيلةٍ في القصرِ".

ردَّ كاستيللَّانو: "أختي، لا أستطيعُ المجيءَ، ولا أجرؤُ أنْ أُخلَّ بكلمتِي للهِ، لقد عزمْتُ أنْ أقضيَ هذه الليلةَ في توبةٍ في الكنيسةِ الصغيرةِ، وهنا يجبُ أنْ أبقَى". صاحَ الشيطانُ: "ولكنْ يا أخي، ألا

تأبهُ لزوجتِكَ والأطفالِ؟ ألا تعلمُ أنَّ قصرَكَ سيصبحُ سريعًا فى أيدِى عدوِّكَ، وتذهبُ ثروتُك كلُّها؟" ردَّ الكونتُ: "ذهبِى وفضتِي وقصرِى وأراضيَّ لا تساوِى شيئًا مقابلَ شرفِي، أمَّا بالنسبةِ لزوجتِي والأطفالِ فإنَّ اللهَ سيحفظُهم".

أدركَ الشيطانُ أنَّه لا فائدةَ مما يفعلُ، وعادَ إلى رئيسِه حزينًا ذليلاً، وقالَ مغمومًا: "لا يمكنُنى فعلُ شيءٍ مع الرجلِ". قالَ رئيسُه: "أنت مجردُ شيطانٍ صغيرٍ عديمِ الفائدةِ، ولن أُعاودَ إرسالَكَ مرةً ثانيةً إلى الأرضِ لتؤدىَ لِى عملاً". قالَ شيطانٌ آخرُ بشوقٍ: "دعنى أُحاولُ إذنْ، فإنَّ عندِى الدهاءَ العظيمَ الذى لن يفشلَ معه أبدًا". وهكذا صنعَ الشيطانُ الداهيةُ ما يظهرُ كأنَّ حريقًا هائلاً اشتعلَ فى القصرِ، وكأنَّ وهجَ اللهبِ يضيءُ النوافذَ فى الكنيسةِ الصغيرةِ، وصاحَ بصوتٍ عالٍ فى الكاستيلانو للهربِ، مخبرًا إيَّاه أنَّ القصرَ يحترقُ وشعلاتِ اللهبِ تنتشرُ، لكنَّ الكونتَ ردَّ فقط بهدوءٍ: "أنا بينَ يدَىْ اللهِ، ولن يسمحَ باقترابِ أذًى منِّى".

عندئذٍ انتهَى اللهبُ الأحمرُ، واستمرَّ كاستيلَّانو فى صلاتِه، بدَا مظهرُ الشيطانِ فى يأسٍ، وسريعًا ما أصبحَ الصباحُ، وحينَما يطلعُ النهارُ تكونُ روحُ الكونتِ قد نجَتْ، إذا لم يُجبرْ على مغادرةِ الكنيسةِ قبلَ ذلكَ قهرًا. وفى محاولةٍ أخيرةٍ تشبَّه الشيطانُ بقَسٍّ،

وأتى إلى الكنيسةَ الصغيرةَ فى وقارٍ، وسارَ أمامَه شيطانٌ صغيرٌ متظاهرًا بأنَّه خادمٌ يحرِّكُ مبخرتَه بالبخورِ.

مسَّ الشيطانُ كتفَ الكونتِ الجاثي على ركبتَيْه، وقالَ: "إنَّه وقتُ الصباحِ أيها السيدُ، وأنتَ مذنبٌ كبيرُ الآثامِ لا يجوزُ أنْ تبقَى هنا، اخرجْ قبلَ أنْ أبدأَ الخدمةَ". قال الكاستيلَّانو: "أعرفُ أنَّنى عظيمُ الذنوبِ، ولكنْ حيثُ وعدَ الربُّ أنْ يغفرَ لِى، لا يمكنُكَ أنْ تدفعَنى إلى الخروجِ".

صرخَ الجمعُ المزدحمُ من الشياطينِ المستمعينَ مولْولينَ فى غضبٍ عندَ سماعِهم هذه الكلماتِ، واندفعُوا يجرُّونَ الكونتَ إلى خارجِ الكنيسةِ الصغيرةِ بالقوةِ، ولكنْ ماذا كانَ ذلكَ الضوءُ الخافتُ فى الشرقِ؟ وماذا كانَ ذلكَ الصوتُ الذى أسكتَ صراخَ الشياطينِ؟ المؤكدُ أنَّه الفجرُ، ورنينُ جرسِ الكنيسةِ الصغيرةِ خارجَ إيف ماريا. Ave Maria لقد أتى اليومُ الجديدُ، ووجبَ فرارُ طاقمِ الشرِّ كلِّه مع الظلامِ أمامَ النورِ. وهكذا أنقذَ الكاستيلَّانو روحَه، ولكنَّه ركعَ هنالكَ ساكنًا بلا حركةٍ، وحينَما دخلَ القسُّ الحقيقيُّ أخيرًا، وجدَ الكونتَ راكعًا هناكَ فى سلامٍ، وابتسامةُ سعادةٍ على وجهِه، لقد تحققَ الغفرانُ الذى صلَّى من أجلِه، ولن يسقطَ بينَ أيدِى شياطينِ الشرِّ مرةً أخرَى، لأنَّ الملائكةَ حملَت روحَه فى سلامٍ عائدةً إلى اللهِ.

* * * * *

ستيللاّ ماريس

ترقدُ مياهُ بايَ Bay بنابولى Naples زرقاءَ هادئةً، زرقاءَ كالسماءِ التى فوقَها، معَ أمواجٍ صغيرةٍ رقيقةٍ على سطحِها، حيثُ تأتى رياحُ الصيفِ من البرِّ كأنَّها مشتاقةٌ، فيرتعدُ الماءُ لمُلامستِها، حيثُ كانَتْ قواربُ الصيدِ الصغيرةُ تنطلقُ ذهابًا وجيئةً بنشاطٍ كأسرابِ الفراشاتِ التى تستمتعُ بحياتِها فى ضوءِ الشمسِ والدفءِ.

ولكنَّ المياهَ ليسَتْ على الدوامِ هادئةً وزرقاءَ، إذْ تهبُّ عواصفُ فجائيةٌ، وتحيلُ ابتسامةَ بايَ إلى دوَّامةٍ سوداءَ من الأمواجِ الغاضبةِ التى ترفعُ جبالاً عاليةً وهادرةً، تحتَ وطأةِ الريحِ العنيفةِ. وا أسَفاهُ على قواربِ الصيدِ الصغيرةِ حينَ يهبطُ الليلُ، ولا يوجدُ هناكَ ضوءٌ طيبٌ يرشدُها إلى موطنٍ ومأوًى؛ فلا شيءَ يلقِى شعاعًا أحمرَ على السماءِ العاصفةِ سوى وهجِ الجبلِ المشتعلِ.

حينَذاكَ يتكدسُ الصيادونَ معًا فى رعبٍ، يقودونَ قواربَهم قبلَ أنْ تضربَهم الريحُ، ويبتهلونَ إلى نجمةِ البحرِ العذراءِ ستيللاً

مـــاريس .Madonna Stella Maris وهـى التى تُعلَّقُ صـــورتُـهـــا فى كنيسةِ الديرِ أعلى التلِّ، وهـم يشـعرونَ بإيمانٍ حقيقىٍّ أنَّها ستحميهم من الخطرِ وترشـدُهـم إلى مـوطنِهم سـالمينَ. ألم تكنْ فى صـحـبتِـهـم دائمًا؟ كيفَ يشكُّ أحدٌ فى هذا وهو يعلمُ قصةَ ظهورِها الرائعةَ؟

منذُ سنينَ طويلةٍ، قبلَ أن يُبنَى الديرُ، كانَ منحـدرُ التلِّ مكانًا مقفرًا ومهملاً، وقد زعموا أنَّ أرواحًا شريرةً تقيمُ هناكَ معَ الأقزامِ وأقزامِ الجبلِ الخرافيةِ والعفاريتِ التى تعملُ على إيذاءِ المسالمينَ. لم يجرؤْ أحدٌ على المرورِ بهذا الطريقِ، وخاصةً بعدَ حلولِ الظلامِ، ومع ذلكَ، وللغـرابةِ، يقـالُ إنَّ شـعلةَ منـارةٍ تضـىءُ ليلةً بعـدَ ليلةٍ فـى ذلكَ المنحدرِ الموحشِ.

لا يمكنُ أنْ يكونَ ذلكَ مِن عملِ أرواحٍ شريرةٍ، ولا أنْ تكونَ قد أُضيئتْ بيدٍ بشريةٍ، ولكنْ تسطعُ الأضواءُ عاليًا منطلقةً بانتظامٍ على باىَ، محذرةً القواربَ كىْ تتجهَ مبتعدةً عن خطرِ الصخورِ تحتَها. يتخذُ البحارةُ المعترفونَ بالفضلِ مسلكَهم بفضلِ الضوءِ المصاحبِ، شاكرينَ السماءَ للمعاونةِ العطوفةِ، ولم يجرؤْ أحدٌ على الاقترابِ من منبعِ الضوءِ ليعرفَ ما هذا الضوءُ.

وحـدثَ ذاتَ ليلةٍ مظلمـةٍ أنَّ مـجـمـوعـةً من الصـيـادينَ كـانوا يسحبونَ شباكَهم الملأى بالأسماكِ الفضيةِ التى كانَت مرئيَّةً تحتَ

ضوءِ المنارةِ المصاحبِ، وأطلقَ أحدُ الرجالِ صرخةً عظيمةً من الخوفِ والدهشةِ حينَ ألقَى نظرةً إلى أعلى؛ فقد رأى مشهدًا معجزًا مهولاً، هناكَ على طريقِ الضوءِ الذى سطعَ من التلِّ فوقَ المياهِ المظلمةِ للباي، لقدْ كانَت السيدةُ العذراءُ Madonna نفسُها مرتديةً ثيابًا مضيئةً من نورٍ، مقبلةً نحوَ قاربِهم الصغيرِ. كانَتْ عيناها تنظرُ إليهم بعطفٍ معَ محبةِ أمٍّ ملأَ الحنانُ قلبَها وهي تقتربُ مبتسمةً.

قالَتْ: "أطفالى، إنكم لا تعلمونَ أننى أضأْتُ الضوءَ الذى يرشدُكم من ذلكَ التلِّ، فالأمُّ يجبُ أنْ تعتنِىَ بأطفالِها دائمًا عندَ الخطرِ، ولكنَّنى أتيتُ الليلةَ لأرجوَ منكم أنْ تؤدُّوا إلىَّ خدمةً، حيثُ يضىءُ ذلكَ الضوءُ ليلاً على منحدرِ التلِّ الخالى توجدُ بئرٌ قديمةٌ، وهنالكَ صورةٌ لى مختفيةٌ بعيدًا. لذلكَ اذهبُوا إلى الأسقفِ "البِيشُوب"the bishop، واطلبُوا إليه رجاءً أنْ يبحثَ عنها ويضعَها فى موضعٍ آمنٍ، حيثُ يتمكنُ أطفالى من نيلِ شرفِها.

بعدَ ذلكَ خبا الضوءُ وغابَتْ العذراءُ عن مرآهم، وحدَّقَ الصيادونَ بعضُهم فى بعضٍ مرتعدينَ خوفًا، وتساءلوا: "هل أصابَنا دُوارُ البحرِ؟ ما الذى يمكنُ أنْ يعنِيَهُ هذا المشهدُ الليلىُّ؟" وكانوا فى خوفٍ شديدٍ من أنْ يتحدثوا فى هذا الأمرِ إلى أىِّ واحدٍ، ولم يفكرْ

واحدٌ منهم فى الذهابِ إلى الأسقفِ كما أشارَتْ إليهم العذراءُ. وفى الليلةِ التاليةِ تكررَ المشهدُ نفسُه، ومرةً ثانيةً أُخبروا بما يجبُ أنْ يفعلوه، ولكنَّهم ظلُّوا على ارتيابِهم، ولم يفعلوا شيئًا. وبعدَ ذلكَ ظهرَتْ العذراءُ فى الليلةِ الثالثةِ، ليسَ فى صورةِ الأمِّ الحانيةِ ولكنْ فى صورةِ الملكةِ السماويةِ التى تلومُهم بغضبٍ لعصيانِهم.

فى هذه المرةِ لمْ يجرُءُوا على عصيانِ المرئيِّ، ولكن عندَ انشقاقِ الصباحِ تركُوا القاربَ وارتحلُوا بكلِّ سرعةٍ إلى الأسقفِ الطيبِ، وبينما هم يتسلقونَ الطريقَ المنحدرَ ويندفعونَ فى طريقِهم سألَ أحدُهم: "ولكنْ مَن الذى سوف يصدقُ قصتَنا؟ وحتى إذا استقبلَنا الأسقفُ فسوف يظنُّ أننا مجانينُ حينَ نخبرُه حكايتَنا". قالَ آخرُ: "ذلكَ أفضلُ من أنْ نواجِهَ الغضبَ من العذراءِ مرةً أُخرَى". قالَ ثالثٌ: "ليسَ أمامَنا إلا أنْ نفعلَ ما أمرَتْنا به، ونتركَ النتيجةَ".

حينَ وصلوا إلى منزلِ الأسقفِ بدَا كأنَّ مجيئَهم كان متوقَّعًا، لمْ يسألْهُم أحدٌ عن حاجتِهم هناكَ، ولكنَّهم عُوملوا بمجاملةٍ عظيمةٍ، وأُدخلوا فى الحالِ إلى حضرةِ الأسقفِ الطيبِ. قالَ الأسقفُ: "مرحبًا بكم". حينَذاكَ انحنى الصيادون الثلاثةُ بأرديتِهم الخشنةِ فى استكانةٍ لينالُوا بركتَه. قالَ: "أخبرونى عن مهمَّتِكم بسرعةٍ؛ لقد أُبلغتُ فى رؤيا أنكم ستأتونَ برسالةٍ سماويةٍ، لذا تحدثوا بلا

خوفٍ". عندَ ذلك قصَّ الصيادونَ الثلاثةُ حكايتَهم واحداً إثرَ الآخرِ، وأخبرُوا عن المشهدِ على المياهِ المظلمةِ للمنارةِ المصاحبةِ التى تُرى من التلِّ الخالى، والمنظرِ العجيبِ الذى تَراءَى لهم على البحرِ الهادئِ.

قالوا: "لم ترَ أعينُنا مثلَ هذا الجمالِ من قبلُ، لقد صُنعتْ أثوابُها من ضوءٍ منسوجٍ، وعيناها مثلُ نجمتين، ويترددُ صوتُها فى آذانِنا كموسيقَى رنينِ أجراسِ كنيسةٍ بعيدةٍ، تهمسُ على البحرِ مرحبةً بعودتنا بعدَ انتهاءِ تعبنا الليلىِّ. فى بدايةِ الأمرِ اعتقدْنا يقيناً أنَّه ليسَ إلا مجردَ حلمٍ، ولكنَّنا رأينا المنظرَ لثلاثِ ليالٍ، ولم نجرؤْ على عصيانِ أمرِها أكثرَ من هذا".



السيدة العذراء تبدو للصيادين - كما تروى الأسطورة

لمْ يسألْ الأسقفُ عن شيءٍ أكثرَ، ولكنَّه تجهزَ للانطلاقِ فى الحالِ، وأمرَ رهبانَه أنْ يرتدُوا ملابسَهم، وبدأُوا الموكبَ بإرشادِ الصيادينَ، وحينَ ذهبُوا كانُوا ينشدونَ المزاميرَ psalms، وسلكُوا اتجاهَهم على الطريقِ الشاقِّ، وتسلَّقُوا التلَّ الموحشَ الخالى، حتى وصلوا إلى البقعةِ التى سطعَتْ منها المنارةُ ليلةً إثرَ ليلةٍ. وهناكَ كما قالَتْ العذراءُ، وجدوا بئرًا قديمةً خربةً، وكانتْ الصورةُ الجميلةُ للعذراءِ مختفيةً بعيدًا عندَ القاعِ، وهى المعلقةُ الآنَ فى كنيسةِ الديرِ.

تلكَ هى الحكايةُ التى حدثَتْ منذُ وقتٍ طويلٍ جدًا، والتى يحكيها الصيادونَ بعضُهم لبعضٍ اليومَ. لم تُرَ العذراءُ مرةً ثانيةً فى ساعاتِ الأرقِ الانفراديةِ الليليةِ قادمةً على الممرِّ الذهبيِّ عبرَ المياهِ المظلمةِ، ولكنَّ الصيادينَ يتطلعون إلى الضوءِ الساطعِ من الديرِ فوقَ التلِّ، حيثُ لا تزالُ صورتُها معلَّقةً، كما أنَّ التفكيرَ فى جمالِ وجهِها يريحُهم ويبهجُهم فى أثناءِ مخاطراتِهم. إنَّهم لا يزالونَ ينادونَها "سيدتُنا، بطلةُ البحرِ" Star of the sea حين يتذكرونَ المنارةَ الصديقةَ التى أضاءَت مرَّةً هناكَ لترشدَ البحارةَ الفقراءَ إلى وطنِهم.

* * * * *

الملاكُ والشيطانُ

سألَتْ القديسةُ: "إلى أينَ سنذهبُ اليومَ؟" قالَتْ الطفلةُ: "آه، خذينى إلى مكانٍ له قصةٌ، أريدُ اليومَ قصةً جديدةً". كانَ صباحُ باكرٌ فى فينيسيا Venice، وقد خرجَتْ القديسةُ والطفلةُ يدًا بيدٍ من الكنيسة القديمة المعتمة إلى الضوءِ اللؤلؤىِّ للميدانِ الكبيرِ، كانَتا تتجولانِ معًا كلَّ صباحٍ عبرَ المنعطفات الضيقةِ قبلَ أنْ يبدأَ الضجيجُ والعملُ اليومىُّ، كانَتا تذهبانِ أحيانًا لرؤيةِ شروقِ الشمسِ فوقَ بركِ المياه، وأحيانًا تتخذانِ طريقَهما إلى السوقِ القديمةِ the old mercato، حيثُ أُحضرَتْ القواربُ المحتشدةُ بغزارةٍ، والممتلئةُ بكنوزٍ من القرعِ الأصفرِ، والخرشوفِ الأرجوانىِّ، والسلَّطاتِ الخضراءِ، وأكوامِ الكرزِ القرمزىِّ، وقليلٍ من سلالِ الفراولةِ المستطيلةِ الشكلِ البازغةِ عبرَ الفتحاتِ الضيقةِ. لكنَّهما أينما ذهبَتا وجدتا حكايةً غريبةً أو أسطورةً legend تحكيها القديسةُ للطفلةِ المستمعةِ.

اتجهَتْ خطواتُهما الآنَ إلى خارجِ الميدانِ الكبيرِ، تحتَ ظلِّ القنطرةِ المعتمةِ لبرجِ الساعةِ، المؤديةِ إلى الشارعِ الضيقِ خلفَه،

اعتادتا أنْ تمشيا ببطءٍ دائمًا، فقد كانَتْ هناكَ أشياءُ كثيرةٌ تستحقُّ المشاهدةَ، وهؤلاءِ الذينَ يسرعونَ يفوتُهم الكثيرُ في فينيسيا. وفي النهايةِ، وبعدَ عدةِ منعطفاتٍ متشابكةٍ تقودُهما إلى أعلى في صورةِ جسورٍ صغيرةٍ كثيرةٍ، وصلتا إلى مواجهةِ قصرٍ قديمٍ ارتفعَ في الزاويةِ بينَ ممرَّينِ مائيَّيْنِ واسعَيْنِ. كلُّ نافذةٍ وكلُّ كوَّةٍ كانَتْ منعكسةً على الماءِ الأسفلِ كما لو كانَ مرآةً، وكذلكَ التمثالُ الرخاميُّ الأبيضُ الذي تُرك أعلى المنزلِ كانَ له توأمُه في الماءِ الأخضرِ أسفلَه.

قالَتْ القديسةُ: "ها هي قصتُنا، أخبريني يا طفلتي، ما الذي ترَيْنَه محفورًا أعلى هذه النافذةِ؟" قالَتْ الطفلةُ، وهي تنظرُ مباشرةً إلى التمثالِ الرخاميِّ بيدَيْهِ المتماسكتَيْنِ وجناحَيْهِ المطويَّيْنِ: "إنَّه ملاكٌ جميلٌ". ثمَّ نظرَتْ في وجهِ القديسةِ الحلوِ، وانتظرَتْ سماعَ القصةِ بشوقٍ.

ابتسمَتْ القدِّيسةُ وتوجهَتْ للطفلةِ المنصتةِ، وقالَتْ: إنَّها فقط أسطورةٌ قديمةٌ غريبةٌ، نسيَها معظمُ الناسِ، ولكنَّني سأخبرُكِ لماذا بقيَ الملاكُ هناكَ. منذُ سنينَ عديدةٍ طويلةٍ عاشَ في ذلكَ البيتِ محامٍ ماهرٍ بفينيسيا، وقد عُرِفَ في كلِّ أنحاءِ المدينةِ بوصفِهِ أعظمَ الرجالِ حكمةً وتعليمًا، وكانَ غنيًا جدًا وقويًا جدًا. وعلى الرغمِ من

أنَّ الناسَ امتدحوهُ لحكمتِه، وكانوا يختمونَ مديحَهم بهزِّ رؤوسِهم وخفضِ أصواتِهم حينَما يتحدثونَ عنه؛ فقد كانَ يُقالُ إنَّه ليس هناك رجلٌ شريرٌ يبلغُ درجتَهُ في الريفِ كلِّه. وقد رُويَتْ حكاياتٌ غريبةٌ عن أفعالٍ شريرةٍ وعنيفةٍ في ذلك البيتِ القديمِ، وقد غادرَه خَدَمُه بالتدريجِ واحداً واحداً، خوفًا من أفعالِه الشريرةِ. وفي النهايةِ تُرك المحامي وحيدًا في المنْزلِ الكبيرِ، ولم يأتِ صديقٌ قريبًا منه.

كانَ المواطنُونَ في المدينةِ يهمسُونَ بعضُهم لبعضٍ: "لقد باعَ نفسَه للشيطانِ". وعندَما يتحدَّثُونَ فإنَّهم كانوا يبدأُونَ بالتلفُّتِ حولَهم بحذَرٍ، خائفينَ نصفَ خوفٍ، خشيةَ أنْ يكونَ المحامي الداهيةُ، أو الشيطانُ، واقفًا هناكَ يستمعُ إلى كلماتِهم. وحينَئذٍ كانَتْ المعيشةُ الانفراديَّةُ غيرَ مريحةٍ مطلقًا في المنزلِ الكبيرِ، ولمْ يجدْ فيها المحامي راحتَه. لم يكنْ هناكَ أحدٌ في انتظارِه، ولا أحدَ يُجهِّزُ له طعامَه؛ فرأى أنَّه من الأفضلِ أنْ يُقنعَ أحدَ خدمِه القُدامَى أنْ يعودَ إليه.

حينَ خطرَتْ هذه الفكرةُ على رأسِه ذاتَ مساءٍ فُتح البابُ في الغرفةِ التي كان يجلسُ فيها، واندفعَ إلى الغرفةِ حيوانٌ ذو وبرٍ كبيرٍ، حيثُ وقفَ وقد اصطكَّتْ أسنانُه مبتسمًا أمامَه في هيئةٍ متودِّدةٍ. لقد كان قردًا ضخمًا أسودَ، في طولِ طفلٍ وفي قوةِ رجلٍ،

وحينما كان يقفزُ ويُصدرُ صرخاتِه الغريبةَ من خلالِ اصطكاكِ أسنانِه ضحكَ المحامى مِن قلبِه كثيراً كما لمْ يفعلْ مِن قبلُ لسنواتٍ طويلةٍ.

قالَ المحامى: "تعالَ، هـهنا رفيقٌ مرحٌ وصلَ حالًا فى وقتِ الاحتياجِ الشديدِ إليه". ابتسمَ القردُ كما لو كانَ قد أدركَ ترحيبَه به، وبدأ يجعلُ نفسَه مُعتاداً كأنه فى بيتِه، وتعلمَ فى وقتٍ قصيرٍ أنْ يؤدِّىَ كلَّ شىءٍ علمَه إيَّاه المحامى. كانت يداهُ حاذقتيْنِ، وكان رأسُه مِن الذكاءِ بحيثُ بدَا أنَّه لا نهايةَ لفوائده؛ استطاعَ أنْ يكنسَ الحجراتِ، وأنْ يُوقدَ المدفأةَ، وأنْ يطهوَ الطعامَ، وحقًّا أجادَ أكثرَ مما استطاعَ كلُّ الخدمِ المدربِينَ أنْ يفعلوه مطلقًا.

كان المحامى أينَما ذهبَ يتباهَى بقردِه الرائعِ، ولم يملَّ قطُّ من روايةِ حكاياتِ مهارتِه وأساليبِه المسليةِ. ولكنَّ الحقيقةَ كانتْ أنَّ هذا القردَ لم يكُنْ غيرَ الشيطانِ Diavolo نفسِه! لقدْ قرَّرَ أنْ يأتىَ ويعيشَ مع المحامى ليكونَ متأكداً تماماً من ضمانِ روحِه، لأنَّه كانَتْ هناك بقيةٌ مِن خيرٍ عندَ المحامى، وفكرَ الشيطانُ أنَّ مِن العقلِ أنْ يبقى بجانبِه دائماً مستعداً لإخمادِها. والآنَ، رغمَ أنَّ المحامى قد أحزنَ ملاكَه الطيبَ مرَّاتٍ ومرَّاتٍ ودفعَه بعيداً، فإنَّ ملاحظةَ الملاكِ تشملُه مِن على بُعدٍ، ويتلهَّفُ على مساعدتِه وحمايتِه. حاولَ

مرةً بعدَ مرةٍ وفشلَ، حتى بدَا الأمرُ ميئوسًا منهُ تمامًا، ولكنَّه حينَما رأَى الآنَ بعينَيْهِ الحزينتَيْنِ المتألِّمَتَيْنِ كيفَ أنَّ الشيطانَ المتمثِّلَ فى شكلِ القردِ كانَ موجودًا دائمًا، قرَّرَ أنْ يحاولَ مرةً أُخرَى.

وهكذا اتخذَ الملاكُ الطيبُ ذاتَ مساءٍ صورةَ واحدٍ مِن أصدقاءِ المحامى، وراحَ ينادى فى المنْزلِ القديمِ المنعزلِ. فوجِئَ المحامى نوعًا ما بدخولِ زائرِه، فقد مضَى زمنٌ طويلٌ لم يهتمَّ أحدٌ مِن أصدقائه بالمرورِ مِن بابِه، والأكثرُ غرابةً أنَّه منذُ مجىءِ القردِ بدَا الناسُ مجتنبينَ له أكثرَ مما كانَ قبلَ ذلكَ. قالَ الزائرُ الملاكُ بعدَ أنْ تحادثَا معًا لبرهةٍ قليلةٍ: "أسمعُ أنَّ لديكَ خادمًا رائعًا، أحبُّ أنْ أسمعَ كلَّ شيءٍ عنه". لم يكنْ شيءٌ يُبهجُ المحامى أكثرَ مِن أنْ يتحدثَ عن حيوانِه الغريبِ الأليفِ، وبدأَ فى الحالِ يحكِى عن أساليبِه الماهرةِ. قالَ الزائرُ: "يبدو أنَّه حيوانٌ فائقُ الروعةِ، أكبرُ ما أحبُّه أنْ أراهُ". قالَ المحامى وهو فى مزاجٍ رائقٍ مرتفعٍ: "لا شيءَ أسهلُ مِن ذلكَ، سأناديهِ فى الحالِ". وصاحَ وهو متجهٌ نحوَ البابِ: "بابوينو Babbuino بابوينو، تعالَ هنا أيها الوغدُ وأرِنا نفسَكَ".

ولكنَّ الشيطانَ أيضًا يعرفُ جيدًا مَن هذا الذى جاءَ فى هيئةِ صديقٍ ليتحدثَ سرًّا مع سيدِه، وبدلاً مِن أنْ يسرعَ كما هو المعتادُ لتلبيةِ نداءِ سيدِه فرَّ هاربًا بكلِّ سُرعةٍ وأخفَى نفسَه فى أبعدِ ركنٍ

مِن المنْزلِ القديمِ. نادى المحامى ثانيةً: "بابوينو، بابوينو". وبدأ يظهرُ عليه الغضبُ ويضربُ بقدمَيْه الأرضَ فى سَوْرةِ غضبٍ كبيرةٍ. قال الملاكُ بهدوءٍ: "هيَّا بنا نذهبُ ونبحثُ عنه". وهكذا مضى المحامى وضيفُه معًا، وبحثًا فى كلِّ حجرةٍ بدقةٍ كاملةٍ، ولكنَّهما لمْ يجدَا دليلاً على القردِ المفقودِ. ومعَ ذلك فقد رأيَا فى نهايةِ الأمرِ شكلاً جاثمًا مكوَّمًا فى دولابٍ صغيرٍ مظلمٍ، وتحركَ الملاكُ للأمامِ ليلمسَه. وبمجردِ أن لمحَ الشيطانُ الملاكَ أطلقَ صرخةً كبيرةً وقفزَ فى اتجاهِ الجدارِ الخارجيِّ للحجرةِ، وعندما لمسَ الجدارَ انهارَ وانهارَت أحجارُه مكوَّمةً، وتكوَّنتْ حفرةٌ كبيرةٌ، وبعدَ ذلك اختفَى الشيطانُ وسطَ سحابةِ الدخانِ والغبارِ.

بدَا مظهرُ المحامى فى رعبٍ وذهولٍ، ثم التفتَ إلى زائرِه، ولكنَّ الزائرَ ذهبَ أيضًا، ووقفَ هناكَ بدلاً منه ملاكٌ ينظرُ إليه بعينَيْنِ حزينتَيْنِ متوَسِّلتَيْنِ، وقالَ: "لقد عُدتُ مرةً أُخرَى لأحاولَ إنقاذَكَ، والرأىُ أن هذه المرةَ الأخيرةَ لن تضيعَ عبثًا". ثم بسطَ جناحَيْه العظيمَيْنِ الأبيضَيْنِ، وهكذا طارَ بعيدًا فى الليلِ المرصَّعِ بالنجومِ. ارتجفَ المحامى من رأسِه إلى قدمَيْه، وخرَّ على ركبتَيْه شاكرًا العنايةَ الإلهيةَ، لنجاته من خداعِ الشيطانِ وحيَلِه، ومعَ تطورِ حالتِه للأهدأ صلَّى لله مخلصًا، لأنَّ ملاكَه الطيِّبَ لن يتركَه أبدًا، بل سيحرسُهُ ويباركُه للأبدِ.

وهكذا عادَت الأوقاتُ السعيدةُ إلى ركنِ القصرِ القديم، وعادَ الخدمُ والأصدقاءُ إلى المحامى، وانقطعَتْ وسوسةُ الشيطانِ. أُعيدَ بناءُ الفجوةِ فى الحائطِ بأحجارٍ جديدةٍ، ولكن لئلاَّ تُنسى هذه الحكايةُ أمرَ المحامى أنْ يُنحتَ تمثالُ ملاكٍ على رخامٍ أبيضَ ويُثبتَ على هذا الموضعِ. بقىَ تمثالُ الملاكِ طيلةَ هذه السنينَ بأيدٍ مكتوفةٍ ووجهٍ آمنٍ سعيدٍ، وما زالَ التمثالُ واقفًا هناكَ إلى اليومِ، يعلمُنا فى صمتٍ الدرسَ القديمَ، أنَّ الخيرَ ينتصرُ فى النهايةِ، ويحكِى الحكايةِ السعيدةَ "عن هزيمةِ الشيطانِ والتحولِ من الباطلِ إلى الحقِّ".

* * * * *

التِّرْمِس والسِّنُّونُو(*)

عاشَ الناسُ يكافحونَ عبءَ الحياةِ في كبَدٍ، في الأماكنِ الريفيةِ المنعزلةِ في إيطاليا، حيثُ كانَت وسائلُ الراحةِ قليلةً والمشاقُّ عديدةً. كانَ أغلبُ الفقراءِ يحكي بعضُهم لبعضٍ قصصًا عن سيدنا المسيحِ المباركِ Blessed Lord والسيدةِ العذراء .Madonna لم تضعُفْ هذه القصصُ عن جلبِ الراحةِ والبهجةِ إلى قلوبهم المتعبة، لأنهم أحبُّوا تذكرَ أنَّ السيدَ المسيحَ كان فقيرًا مثلَهم تمامًا، وأنَّ أمَّه الغاليةَ عرفَت كيفَ تكافحَ من أجلِه وترعاه؛ كأنَّ هذا يخففُ من أعبائهم ويجعلُهم أكثرَ اقتناعًا حينَما يتخيلُون مرةً أن ملكَ السماءِ يشاركُهم في كثيرٍ، وأحيانًا عندَما يشكُو الأطفالُ أنَّهم لا يجدُون سِوَى حبَّاتِ الترمسِ lupin beans ليأكلُوها، ويقولونَ إنَّ أكلَ الترمسِ يتركُهم جَوْعَى مثلَما كانُوا من قبلُ، تحكِي لهم الأمُّ هذه الأسطورةَ القديمةَ التي لا يملُّ الأطفالُ سماعَها.

(*) العنوان في الأصل " LITTLE LEGENDS OF THE MADONNA أساطير صغيرة عن السيدة العذراء"، ووجدت أن الأسطورة تتحدث عن نبات الترمس وطائر السنونو. (المحرر)

كلُّنا نعلمُ أنَّ الطفلَ يسُوعَ Gesu Bambino وُلدَ في حظيرةٍ خيول stable فقيرةٍ بلا حاشيةٍ ملكيةٍ لحراسته، معَ أنَّه كانَ ملكَ السماء. لكنْ يجبُ أنْ نتذكرَ أنَّه كانَت لديْه مَن هيَ أفضلُ مِن الحاشيةِ الملكية، كانَت لديْه أمُّه العزيزةُ التى كانَت أجودَ حراسةً من الجميع، كانَ عليها أنْ تتحلَّى بالشجاعةِ واليقظةِ لكلِّ خطرٍ يدنُو منه. أرسلَ الملكُ الشريرُ فى تلكَ البلدةِ جنودَه القساةَ غلاظَ القلوبِ لقتلِ الطفلِ حديثِ الولادة، وسرعانَ ما أصبحَ الجنودُ فى طريقِهم إلى بيتِ لحمٍ Bethlehem لتنفيذِ أمرِه، حينئذٍ لفَّت العذراءُ مريمُ الطفلَ الغالى فى خمارِها، وخرجَت فى سِريَّةٍ مسرعةً ليلاً لإنقاذه مِن شدةِ عُنفِ الملكِ هيرودَ Herod(*) فى الصباحِ الباكرِ، عندَما بدأَ ضوءُ الفجرِ الخافتُ الضئيلُ فى البزوغِ، وبدَتْ أشجارُ الزيتونِ فضيةً فى الصباحِ النَّدِيِّ، جلسَتْ العذراءُ المسكينةُ تستريحُ على جانبِ الطريقِ، كانَتْ متعبةً جداً لأنَّها اضطُرَّت إلى المَشيِ طوالَ الليلِ، وكانَ قلبُها مُثقلاً جداً بالخوفِ، رغمَ خفةِ حملِها الغالِي.

لقد هربَتْ بعيداً جداً، ولكنَّها الآنَ حينَ جلسَتْ تستريحُ سمعَت وقعَ أقدامٍ تقتربُ، ورأَتْ مجموعةً مِن الجنودِ يتابعُونَ سيرَهم إلى

(*) يحتل الملك هيرود مكانة خاصة فى التاريخ الدينى المسيحى؛ فقد أعاد بناء الهيكل فى القدس. ويقول إنجيل متى إنه أمر بمذبحة الأبرياء، وهى قتل كل الأطفال الذكور فى بيت لحم، حيث ولد يسوع المسيح، خوفا من أن يفقد عرشه لملك يهودى جديد. (المترجم)

أسفلِ الطريقِ الأبيضِ الطويلِ. لا جَدْوَى مِن التفكيرِ فى الاختباءِ، لأنَّهم بالتأكيدِ قد رأَوْها، ولا جَدوَى أيضًا مِن التفكيرِ فى الفِرارِ، لأنَّ الرجالَ سيلحقُونَ بها فى سهولةٍ، وليسَ أمامَها ما تفعلُه إلا أنْ تجلسَ وتبقَى هادئةً وتدعو اللهَ أنْ يساعدَها، لِذا لمْ تتحركْ ولم تبدأْ، ولكنَّها وضعَت الطفلَ فى حِجرِها بلُطفٍ وعنايةٍ، وغطَّته بمئزَرِها وقد ربطَتْ أركانَه معًا لتخبئَ ما يرقدُ فيه، وهمسَتْ: "نَم يا صغيرِى، نَم، ستتحققُ أمُّك أنَّه لا ضررَ يدنو منكَ، نَم فحسبُ". ثم صعدَ الحرَّاس هائجينَ غاضبِينَ لبحثِهم غيرِ المثمرِ، وخاطبوها بغِلظةٍ شديدةٍ. سألُوها: "هلْ رأيتِ امرأةً وطفلاً تمرُّ عبرَ هذا الطريقِ؟ أجيبى بالصدقِ، وإلا سيكونُ الجزاءُ الأسوأُ لك". قالَتْ العذراءُ وهى ترفعُ عينَيْها الرقيقتَيْنِ إلى وجوهِهم المتجَهِّمة: "لم أرَ أحدًا يمرُّ مِن هنا". صاحَ أحدُ الرجالِ: "ماذا تحملينَ فى مئزرِكِ؟" أجابَتْ: "السيدَ العظيمَ" Gran Signor(*) بالمناسبة، قالَتْ هاتَيْنِ الكلمتَيْنِ اللتَيْنِ رفعَتْ صوتَها بهما وكأنها تعنى أنَّ مئزرَها كانَ مليئًا بحبوبِ الغلالِ grain(*)، ولكنَّ الكلمةَ التى قالَتْها حقًّا: "السيدَ العظيمَ" the great Lord(*)

(*) لعلنا نلاحظ المقاربة بين النطق الصوتى لكلمتى gran و grain (المحرر)

بعدَ ذلكَ أمسكَ أحدُ الجنودِ بركنِ مئزرِها بطريقةٍ وقحةٍ وهزَّه، وياللعجبِ! لقد تدفقَ مجرًى من حبوبِ الغلالِ الذهبيةِ. بدَا الرجالُ عندئذٍ مقتنعينَ، حيثُ إنَّها ليسَتْ إلا فلاحةً قرويةً لا يمكنُها أنْ تخبرَهم بشيءٍ، وهكذا عادُوا أدراجَهم متذمرينَ للبحثِ في بعضِ الطرقِ الأخرَى. أحنَتْ العذراءُ رأسَها على الطفلِ النائمِ، وشكرَتْ اللهَ على معجزةِ حبوبِ الغلالِ، وبعد ذلكَ رفعَتْه على ذراعَيْها واستأنفَتْ طريقَها، لكنَّهالمْ تكدْ تبعدُ حتى سمعَتْ وقعَ أقدامِ الجنودِ مرةً أخرى، وحينَئذٍ استدارَتْ جانبًا وأسرعَتْ خلالَ حقلٍ من التِّرمسِ.

كانَتْ حباتُ التِّرمسِ قد جفَّتْ وصارَتْ جاهزةً للقطفِ، ووارَتْها سيقانُها المرتفعةُ حينَ مرَّتْ، خطَتْ بخفةٍ قدرَ استطاعتِها وحبسَتْ نفَسَها حينَ أسرعَتْ دونَ أنْ تُحدثَ صوتًا حاملةً ضناها بينَ ذراعَيْها، ولكنَّ حباتِ التِّرمسِ هذه أشياءُ بلا مشاعرَ، فبدلاً من أنْ تحتفظَ بثباتِها وهدوئِها حينَ مرَّتْ أصدرَتْ صلصلةً عاليةً لضوضاءَ مزدحمةٍ نشيطةٍ، وكانَ العجيبُ أنَّ الجنودَ لم يسمعُوا.

وقفَتْ العذراءُ مرتجفةً لتُصغِيَ، لكنَّ وقعَ الأقدامِ راحَ يخفتُ، وأدركَتْ أنَّ مطارديها قد مضَوْا، وأنَّ الخطرَ قد زالَ في ذلكَ الوقتِ، عندَ ذاكَ استدارَتْ إلى حقلِ التِّرمسِ، وهزَّتْ رأسَها فوق الحبوبِ

الصاخبةِ، وقالَتْ: "ألم يمكنْ أنْ تبقَىْ ساكنةً حينَما كانَ يسوعُ الطفلُ فى خطرٍ؟ من الآنَ فصاعداً حينَ يأكلُ الناسُ منكِ فلن تُشبِعِي جوعَهم، وسيكونُ هذا عقابَكِ". وهذا هو السببُ فى أن حباتِ التِّرمسِ تتركُنا جَوعَى دائمًا وبداخلنا شعورٌ بعدمِ الامتلاءِ.

واستمرَّتْ العذراءُ فى رحلتِها، وحينَ ارتفعَتْ الشمسُ فى كَبِدِ السماءِ وأضعفَتْها الحرارةُ، سمعَتْ مرةً أُخرَى صوتَ وقعِ الأقدامِ. كانَتْ تمرُّ خلالَ حقلٍ حينَما كان الفلاحُونَ يبذرُونَ حبوبَهم، وحينَ رأَى هؤلاء الناسُ الطيبُونَ وجهَها المتعبَ التفُّوا حولَها، وسألُوا عمَّا إذا كانُوا يستطيعُونَ مساعدتَها فى طريقِها، فقالَتْ: "أسألُكم معروفًا كبيرًا لى، سوفَ يُقبلُ الآنَ حرسٌ من الجنودِ، ولسوفَ يسألُونَكم عمَّا إذا كُنتُم قد رأيتُم امرأةً وطفلاً تمرُّ من هذا الطريقِ، أرجوكم أنْ تجيبُوهم فقطْ بأنَّ واحدةً مرَّتْ حينَما كُنتُم تبذرُونَ حبوبَكم".

تحيَّرَ الرجالُ، ولكنَّهم وعدُوا أنْ يفعلُوا كما سألَتْ، وياللْعجبِ! لمَّا عبرَتْ الحقلَ بدأَ الحَبُّ الذى فى الحُفَرِ ينبتُ، واندفعَتْ بوادرُ الورقِ الخضراءُ، وظهرَتْ مجموعاتُ الحبوبِ متضخِّمةً ناضجةً أمامَ أعينِهم، حتى وصلَ الجنودُ فى الوقتِ الذى كان فيه الرجالُ فى منتصفِ الحصادِ.



العذراء مريم كما تصورتها الرسامة كاترين كاميرون حين وقفت باكية تحت الصليب

صاحَ الجنودُ: "هل رأيتم امرأةً وطفلاً تعبرُ هذا الطريقَ؟" أوقفَ الفلاحُونَ حصادَهم، ورفعُوا عيونَهم مجيبينَ فى هدوءٍ، كما طلبَتْ منهم السيدةُ العذراءُ، وقالوا: "رأينا امرأةً وطفلاً تمرُّ حينَ كنَّا نبذرُ هذه الحبوبَ". زمجرَ الجنودُ: "وما فائدةُ ذلكَ لنا؟ خلُّوا هذا الهرجَ السخيفَ لأولئك الذين يرغبُونَ فى تلك الأشياء". قال أحدُ الحصَّادينَ: "إنَّها ليسَتْ مزحةً، إنَّنا نقولُ الحقَّ فحسبُ".

قالَ الجنودُ بعضُهم لبعضٍ: "حسنًا، هؤلاء الرجالُ البُلهاءُ أضعفُ مِن أنْ يخدعُونا، لا جدوَى مِن الاستمرارِ، يجبُ أنْ نبحثَ فى اتجاهٍ آخرَ". وهكذا هربَتْ السيدةُ العذراءُ والطفلُ دونَ أذًى، لأنَّ عندَ اللهِ طُرقًا كثيرةً لحمايةِ أطفاله.

السيدةُ العذراءُ المسكينةُ! عاشَتْ حياةً حزينةً وقلقةً إلى النهايةِ القصوَى، وحتى الآنَ يمكنُ للمرءِ أنْ يرَى آثارَ دموعِها. كانَ ذلكَ حينَ وقفَتْ بكلِّ كيانِها ترتعدُ وتبكى تحتَ الصليبِ، لدرجةِ أنَّ طيورَ السنُّونُو تنقضُّ وتندفعُ فوقَ الرؤسِ توَّاقةً إلى مساعدتِها وراحتِها. حتى الطيورُ كانَتْ حزينةً لهذا المشهدِ، وكانَتْ تطيرُ أقربَ وأقربَ مكوِّنةً دوائرَ تدورُ حولَها وتدورُ، حتى هدهدَتْ أخيرًا صدرَها بريشِها الناعمِ كلَّما مرَّتْ، وكانَتْ الدموعُ العظيمةُ تسيلُ ببطءٍ مِن عينَيْها وتتساقطُ على الصدورِ المتجهةِ للأعلى من الطيورِ الصغيرةِ،

وحيثُما يتساقطُ الدمعُ يتحولُ الريشُ من الأسودِ إلى الأبيضِ النقيِّ. وهكذا ارتدَتْ طيورُ السِّنُّونُو علامتَها المميَّزةَ البيضاءَ منذُ ذاكَ في ذكرَى الراحةِ التى تاقَتْ إلى توفيرِها.

* * * * *

الكونتيسة الصغيرة

عاشَ أحدُ النبلاءِ وزوجتُه في فينيسيا Venice في عامِ ١٢٨٨، وكانَتْ لهم ابنةٌ صغيرةٌ واحدةٌ، كانَتْ هذه الطفلةَ الوحيدةَ عندَهم، ولمْ يتمنَّيا زيادةً عليها. لقد شكرَا الإلهَ على هذه الابنةِ الصغيرةِ الغاليةِ، والتي كانتْ أحبَّ إليهما مِن أيِّ شيءٍ آخرَ في العالمِ؛ كانَتْ أجملَ من أيِّ طفلةٍ في فينيسيا، زهرةُ زَنْبَقٍ بيضاءُ ذاتُ قلبٍ من الذهبِ. أينما ذهبَتْ يمتلئُ الناسُ بهجةً لرؤيةِ وجهِها الجميلِ، فقد كانَتْ تحملُ البهجةَ معَ إشراقةِ قلبِها الذهبيِّ، والذي كانَ حنونًا وحبيبًا وحقيقيًا إلى أقصَى حدٍّ.

ثَمَّةَ شيءٌ واحدٌ أحبَّتْه الكونتيسةُ الصغيرةُ أكثرَ مِن الأشياءِ الأُخرَى كلِّها، وكانَ ذلك هو الذهابُ للخدمةِ اليوميةِ في الكنيسةِ المجاورةِ، في البدايةِ كانَتْ تذهبُ عندَما تصطحبُها أمُّها في أيامِ الآحادِ وفي أعيادِ القديسينَ، ولكنَّها لمَّا كبرَتْ قليلًا كانَتْ تذهبُ غالبًا بنفسِها. عرفَ كلُّ الناسِ في فينيسيا الكونتيسةَ الصغيرةَ، لذا كانَتْ آمنةً تمامًا، حتى إنْ خرجَتْ بمفردِها. كانَتْ الكنيسةُ التي أحبَّتْها الطفلةُ في الضفةِ الأُخرَى مِن القناةِ، ولم يكنْ هناك جسرٌ

يربطُ بين الضفتَيْنِ، ولذا يُضطرُّ مَن يرغبُ فى العبورِ إلى أنْ يركبَ قـاربًا عندَ المعبـرِ، وكانَ الملاحُـونَ على اسـتـعدادٍ دائمًا للتجـديفِ بالغادةِ الصغيرةِ إلى الجانبِ المقابلِ.

بعـدَ مـدَّةٍ بدأ والدُها النبـيلُ يتـأمَّلُ فـى أنَّ ابنتَـه قـد ذهبَتْ إلى الكنيسةِ أكثرَ ممَّا ينبغِي، لقد كانَ سعيدًا لأنها كانَتْ طفلةً على هذه الدرجةِ مِن الطيبةِ، ولكنَّه لم يكنْ يريدُ لها أنْ تُصبحَ قدِّيسةً، وإنَّما يريدُ لهـا أنْ تتـزوَّجَ رجـلاً نبيـلاً ثريًّا وأنْ تـعيشَ حـيـاةً بهـيجـةً فى الدنيا. لقد كانَ يخشَى عليها إذا مـا زادَ ترددُها على الكنيسةِ أنْ يزدادَ تفكرُها فـى أمورِ السمـاءِ، وأنْ يقلَّ تفكيرُها فى أمـورِ الحيـاةِ على الأرضِ، ولذا أخبرَها ذاتَ يومٍ أنَّها يجبُ ألا تذهبَ مرةً أُخرَى إلى الكنيسةِ.

كانَتْ الكونتيسـةُ الصـغيرةُ طيِّبةً ومطيـعةً كما يـجبُ للطفلِ أنْ يكونَ، ولكنَّـها أخبـرَتْ والدَها فـى الحـالِ أنها لن تتمكنَ مِن طاعتِـه، فـالإله الأبُ أبوها أيضًـا، وعليـهـا أنْ تحـاولَ إرضـاءَه. لـمْ يُرِدْ الوالدُ أنْ يبدوَ خشنًا، لأنَّه أخلصَ الحبَّ لابنتِـه الصـغيرةِ، ولمْ يقلْ شيئًـا، لكنَّه فى ذلكَ اليومِ تمامًا ذهبَ إلى الملاحِينَ فى المعبرِ، وأخبرَهم أنَّه لا يسمحُ لهم أنْ يحملُوا الكونتيسـةَ الصـغيرةَ عبرَ الماءِ إذا أرادَتْ

الذهابَ إلى الكنيسةِ، ووضعَ بعضَ القطعِ الذهبيةِ فى أيديهم لمساعدتِهم فى تذكرِ أمرِه، ووعدُوه أنْ ينفذُوا تعليماتِه بإخلاصٍ.

فى الصباحِ التالى جاءَتْ الطفلةُ إلى المعبرِ مبكرةً كالعادةِ، وحينَ كانَتْ متجهةً لتدخلَ أولَ قاربٍ أخبرَها الملاحُ أنَّه لا يستطيعُ العبورَ بها، توجهَتْ إلى القاربِ التالِى، وهناكَ قالَ لها الملاحُ نفسَ القولِ أيضًا، وواحدًا بعدَ واحدٍ رفضُوا أنْ يحملُوها عبرَ القناةِ. حدَّقَتْ الكونتيسةُ الصغيرةُ فى الرجالِ بعينَيْها البريئتَيْنِ المستفسرتَيْنِ، وتساءلَتْ: ما المعنَى المقصودُ؟ ولكنَّ الرجالَ بدَوْا بعيدِينَ خجلًا، بدأَتْ شفتاها ترتعدانِ لدقيقةٍ واحدةٍ وامتلأَتْ عيناها بالدموعِ، ولكنَّها بعدَ ذلكَ مسحَتْ دموعَها سريعًا، وابتسمَتْ بسعادةٍ كعادتِها دائمًا.

حينَ نزلَتْ إلى ضفةِ القناةِ خلعَتْ مئزرَها الأزرقَ الصغيرَ ووضعَتْه فوقَ الماءِ، ثم أنزلَتْ قدمَيْها فوقَه تمامًا دونَ خوفٍ، وهمَّ الملاحُونَ بالتقدم إليها ولكنَّ الطفلةَ كانَتْ فى أمانٍ، ومئزرُها لم يطفُ مثلَ قاربٍ فقطْ، بلْ بدأَ يندفعُ بلطفٍ عبرَ القناةِ، حتى أوصلَ الكونتيسةَ الصغيرةَ سالمةً إلى الضفةِ الأُخرَى، ووقفَ الملاحُونَ ينظرُونَ فى ذهولٍ، بينَما تدخلُ الطفلةُ الكنيسةَ فى هدوءٍ. سرعانَ ما

انتشرَتْ حكايةُ العبورِ العجيبةُ على القاربِ الهشِّ الصغيرِ في جميعِ أنحاءِ فينيسيا، وتحدثَ الناسُ في نغماتٍ وقورةٍ عن الطفلةِ القديسةِ التي تعيشُ بينَهم. تمنَّى النبلاءُ الشبانُ أنْ يطلبُوا يدَها للزواجِ حينَ تصلُ إلى العمرِ المناسبِ، وأدركَ أبوها أنَّه يمكنُه أنْ يختارَ من بينِ أغنى الشبابِ وأنبلِهم على الأرض ليزوِّجَه ابنتَه الصغيرةَ.

لكنَّ اللهَ قد اختارَ شيئًا أفضلَ من الشرفِ الأرضيِّ للكونتيسةِ الصغيرةِ، قبل زمنٍ طويلٍ جدًّا جاءَ رسولُه ليحملَها عبرَ نهرِ الموتِ المظلمِ إلى المدينةِ الذهبيةِ للسماءِ، ولم تكنْ خائفةً مطلقًا للذهابِ، وتمامًا كما وطئَت فوقَ ذلك القاربِ الهشِّ الصغيرِ لتُحملَ عبرَه إلى بيتِ الله، انطلقَتْ الآنَ بسعادةٍ وبثقةٍ تامَّةٍ للذهابِ إلى المدينةِ السماويةِ. فُجعَتْ فينيسيا كلُّها في الكونتيسةِ الصغيرةِ، ودفنُوها في الكنيسةِ التي أحبَّتها كثيرًا، وفي السنواتِ التاليةِ كانَت الأمهاتُ حاملةً أطفالَهنَّ بينَ أذرعِهنَّ، يفضلنَ في الأغلبِ أنْ يذهبنَ ويصلِّينَ إلى مقبرةِ القديسةِ الصغيرةِ، ويسألنَها حمايةَ صغارِهنَّ وحفظَهم من أخطارِ الماءِ، تمامًا كما حماها اللهُ وحفظَها حينَما كانَتْ طفلةً.

* * * * *

المؤلفة فى سطور:

إيمى ستيدمان

نشرت إيمى ستيدمان كتابها "فرسان الفن"، وهو قصص الرسامين الإيطاليين فى عام ١٩٠٧

عاشت إيمى ستيدمان وكتبت وكانت مؤلفة إنجليزية لكتب الأطفال.

وغالبا ما كانت تكتب فى مواضيع دينية "القديسين"، ولكن أيضًا كتبت فى الأدب "ديكنز" وكتبت أيضا فى الفن "الفنانون الإيطاليون".

كتبت إيمى حين لم يكن التدريس مكفولا فى بريطانيا؛ لذا فغالبا ما استخدمت كتبها كنصوص للتعليم المنزلى للأطفال وفى الأكاديميات الخاصة، ومن مؤلفاتها:

١ – قديسو جزيرتنا ١٩١٢

٢ – حكايات للأطفال.

٣ – حكايا وأساطير إيطالية ١٩٠٩

٤ – حكايا الرسامين ١٩١٠

٥ – حكايات وقصص من التوراة.

٦ – فى حديقة الله.

٧ – فرسان الفن – قصص حياة الرسامين الإيطاليين.

الرسامة فى سطور:

كاثرين كاميرون

عنيت برسم الزهور بالألوان المائية والجواش وهى شقيقة السير ديفيد كاميرون، ولدت فى السادس والعشرين من فبراير من عام ١٨٧٤ فى مدينة جلاسجو، وتعلمت على يد فرانسيس نيوبيرى فى مدرسة جلاسجو للفنون ١٨٩٨، وفى أتيليه كولاروسى بباريس على أيدى كورتويس وبراينت عام ١٩٠٢ ، وتزوجت من آرثر كاى ١٩٢٨، ورسمت اللوحات التوضيحية لعديد من الكتب منها:

١ – قصص فرسان الملك آرثر.

٢ – زهور أحبها فى دنيا الخيال "حيث يصطاد النحل مدينة أدنبرة ويمتصها". وقد عرضت فى معرض أنان فى جلاسجو عام ١٩٥٩

توفيت كاثرين كاميرون عام ١٩٦٥

المترجم فى سطور:

الحسين محمود خضيرى الحجاجى

- مواليد الأقصر/تخرج فى كلية الأداب قسم التاريخ والدراسات الإفريقية.

- يعمل باحثا اجتماعيا بالمجلس الأعلى لمدينة الأقصر.

- صدر له ديوانان من الشعر الفصيح:

١ - أغنية لغد بعيد/عن هيئة قصور الثقافة.

٢ - تراتيل المريد/عن سلسلة إبداعات بهيئة قصور الثقافة.

- نشر العديد من القصائد والقصص القصيرة والمترجمة فى مجلات:

الشعر - الثقافة الجديدة - سطور - الشاهد - زهرة الخليج - الصدى - كلمتنا - عرب الكريتية.

ونشر بصحف:

: الجمهورية - المساء - القاهرة - أخبار الأدب - الرسالة - المستقبل - الموجز - اللواء العربى - صوت قنا.

- له تحت الطبع:

- مدن الغيم/شعر

- شتاء لملكة الغيوم/شعر

- رجل وحيد وأشياء حميمة قصص قصيرة.

- وبطيئًا جاء الليل/قصص مترجمة من الأدب العالمى.

- فتيات صنعن تاريخا/كتاب مترجم.

- الأساطير/كتاب مترجم.

المراجع/المحرر في سطور:

د/ محمد عيسوى

- عضو هيئة التدريس (مدرس متفرغ) قسم اللغة العربية وآدابها - كلية الآداب - جامعة القاهرة .

- محرر أول بمجمع اللغة العربية بالقاهرة (سابقا).

- المشرف على المراجعة اللغوية - للمشروع القومى للترجمة - الذى كان تابعا للمجلس الأعلى للثقافة سابقا.

كاتب التقديم فى سطور:

الدكتور/أحمد شمس الدين الحجاجى

أستاذ بكلية الآداب - قسم اللغة العربية - جامعة القاهرة. ولد فى الأقصر سنة ١٩٣٥م. حصل عام ١٩٦٥م على درجة الماجستير فى "النقد المسرحى فى مصر"، ثم على الدكتوارة فى سنة ١٩٧٣م بأطروحته "الاسطورة فى المسرح المصرى العاصر"، كما نال جائزة الدولة التقديرية للآداب ٢٠١٠

من أهم مؤلفاته:

* الأسطورة فى المسرح المصرى المعاصر (١٩٣٣ - ١٩٧٠) - القاهرة: دار الثقافة، ١٩٧٥
* العرب وفن المسرح. (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب) ١٩٧٥
* الوظيفة بين الأسطورة والمسرح. (القاهرة: دار الثقافة للطباعة والنشر) ١٩٧٥
* فى قواعد اللغة العربية. (الدمام، السعودية: دار الإصلاح) ١٩٨٠.

* الأسطورة فى الأدب العربى (القاهرة: دار الهلال) ١٩٨٣ .
* سيرة الشيخ نور الدين (رواية) – القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب) ١٩٨٧ و(القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة) ٢٠٠٢ .
* الخماسين.(القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب) ١٩٨٨ .
* صانع الأسطورة: الطيب صالح – (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب) ١٩٩٠ .
* مولد البطل فى السيرة الشعبية. (القاهرة: دار الهلال) ١٩٩١ .
* المسرحية الشعرية فى الأدب العربى الحديث. (القاهرة: دار الهلال) ١٩٩٥ .
* النبوءة، أو، قدر البطل فى السير الشعبية العربية. (القاهرة: الهيئة العامة لقصور الثقافة) ٢٠٠٠ .
* مدخل إلى المسرح العربى. (القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة) ٢٠١٣.

الإشـراف الفنـي: حـسـن كــامــل